الكتاب الماسى

تاريخ ما أهمله التاريخ

على ضفاف النيل

حبيب جاماتى

إهـــداء

درج الناس على القول بأن من يشرب ماء النيل لابد أن يعود ليشرب منه ثانية ! واذا كان هذا لا يحدث دائما ، فانه يحدث كثيرا . فأرض مصر ـ وهي هبة النيل ـ جـــذابة ساحرة . من حل بها مرة ، عاوده الحنين اليها . فالى الذين ضحك لهم الحظ فشربوا ماء النيل ، ثم واتتهم الظروف فعادوا ليشربوا منه ثانية ، أهدى هـــذه المجموعة من الاقاصيص التاريخية ، التى وقعت حوادثها على ضفاف النهر المبارك ، الذى يفيض بالخير ، لكى يذكروه بالخير !

القاهرة ح.ج

تصدير

فى مجموعة « مصر الأقدمين » التى كانت فى ترتيبها السادسة من سلسلة اقاصيص « تاريخ ما أهمله التاريخ » طالع القارىء عشرين اقصوصة وقعت حوادثها فى مصر ، فى عهود الفراعنة والبطالسة ، اى قبل الميلاد وبعده بقليل . وفى المجموعة التى اقدمها اليه هنا ، يجد عشرين اقصوصة اخرى ، وقعت حوادثها كلها او جلها ، مثل الاولى، فى مصر ، ولكن بعد بدء التاريخ الميلادى ، وفى خلال التاريخ الهجرى ، حتى اوائل القرن العشرين الذى نحن فيه .

واود ان اذكر القارىء بما قلته من قبل عن مبلغ الحقيقةالتاريخية فى هذه الأقاصيص ، اى ان كل اقصوصة منها قائمة على حقيقة تاريخية واقعة ، ضمن اطار من الخيال . او بعبارة اخرى انىاستعنت بالخيال فى سرد التفاصيل ، بقدر مايسمح لى الفن القصصى بذلك !

واكرر ايضا ان ما أضعه هنا بين يدى القارىء ليس بحثا تاريخيا، وليس قصة خيالية ، بل هو مزيج من الاثنين معا . فالذى اقصده من كتابة « تاريخ ما أهمله التاريخ » هو أن يجد القارىء فى مطالعتها فائدة وتسلية فى آن واحد ، من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان اخدم التاريخ والأدب معا .

وقد صدرت حتى الآن سبع حلقات من سلسلة هذه الأقاصيص عن «الدار القومية للطباعة والنشر» فى « الكتاب الماسى » وهى :

الحلقة الاولى : بطولات عربية

الحلقة الثانية : الناصر صلاح الدين

الحلقة الثالثة : مصر مقبرة الفاتحين

الحلقة الرابعة : أندلس العرب

الحلقة الخامسة : الجنة فى ظلال السيوف

الحلقة السادسة : مصر الأقدمين

الحلقة السابعة : بين جدران القصور

وهذه هي الحلقة الثامنة بعنوان : « على ضفاف النيل » وبها عشرون اقصوصة راعيت في اختيارها ان تكون حوادثها معبرة عن مختلف المشاعر التي تختلج في الصدور ، من الحب الى الكره ، ومن التسامح الى الانتقام !

وضعت أقاصيص هذه السلسلة الطويلة ونشرتها متفرقة في خلال أربعين سنة . وكتبت معظمها في حجرة تطل على النيل — النيل الهادىء أو النيل الهادر — فاصبح من حق النهر العجيب على أن أجعل اسمه العريق عنوانا لواحدة من هذه المجاميع . وهأنا قد أعطيت النيل حقه بتسمية الحلقة الثامنة من السلسلة : « على ضفاف النيل ! »

القاهرة — رجب ١٣٨٢

ديسمبر — كانون الاول ١٩٦٢

حبيب جاماتي

الأنشودة المصرية

في سنة ١٩٣١ حاولت الحكومة الايطالية أن تنتشل من بحيرة « نيمي » المركبين اللذين أغرقهما فيها الامبراطور كاليجولا لاستخراج الكنوز المخبأة فيها . وفشلت المحاولة .

جلس كايوس أوغسطس جرمانيكوس الملقب بكاليجولا على عرش روما فى سنة ٣٧ للميلاد ، وهو فى السادسة والعشرين من العمر . وحكم الامبراطورية ثلاثة أعوام وعشرة شهور ، وقتل فى سنة ٤١ بيد الرومانى كيرياس ورفاق له من الأحرار ، أقدموا على انقاذ بلادهم من شرور ذلك الوحش البشرى !

كان كاليجولا جميلا متأنقا ، يميل الى الفرح والمرح ، لكنه كان يحمل بين ضلوعه قلبا قد من الصخر الأصم ، ويتوق دائما الى الضرب والبطش ، لايحلو له عيش الا اذا خضب يديه ولو مرة واحدة فى يومه بنجيع الأبرياء .

نهض ذات يوم وهو متعطش كعادته الى الدماء ، فأمر زبانيته بأن يذبحوا أمام عينيه اربعين من الاسرى والعبيد والاشراف الذين تآمروا على حياته ، وعندما اشار عليه أحد المقربين اليه بأن يعفو عنهم لكى يكتسب بعفوه حب الشعب الرومانى ، اجابه صائحا :

ـ وددت لو كان للشعب الرومانى رأس واحد لكى اقطعه بضربة واحدة !

وكان الرومانيون فى ذلك العهد ، عندما تقع مثل هذه الحوادث الدموية ، لايجرءون على نقل اخبارها ، بل يكتفون بقولهم المعروف : « الامبراطور يلهو ! »

***

غضب كاليجولا ذات يوم على القنصل « افرانيوس » فالقى به من نافذة القصر الى الشارع ، حيث سقط المسكين ميتا ، فصاح الشعب سائلا :

ـ من تعين لنا قنصلا مكانه ياقيصر ؟

وأجاب كاليجولا مقهقها :

ـ حصانى !

واعلن ذلك المعتوه أنه يمنح حصانه ـ واسمه «انسيتاتوس» ـ

لقب قنصل ويعينه خلفا للقنصل المقتول . وكان يركب ذلك «الحصان القنصل » ويطوف الشوارع بين صفوف الرومانيين الساجدين .. فيضحك ! ويردد الشعب خائفا مرتعدا :

ــ الامبراطور يلهو !

***

قال لاحدى عشيقاته ذات ليلة ــ ولم تكن تلك العشيقة غير أخته ! ــ وقد سكر بنشوة الخمر والغرام معا :

ــ قبضت اليوم على أربعة من أشراف روما ، قيل لى انهم يتآمرون على . وقد اعددت سوطا من جلد الماعز ، اريد منك انتضربى به كل واحد من اولئك الاشراف الاربعة ثلاثين ضربة على مراى من الناس !

فذعرت المراة وقالت :

ــ اعفنى من هذا أيها الحبيب ولا تجعلنى أعتدى على حقوق الجلاد ! الا تخشى ان يؤدى هذا الاضطهاد الى كره شديد تغذيه أعمالك فى نفوس الرومانيين ؟

فأجاب قيصر ضاحكا :

ــ ليكرهنى الرومانيون ! هذا لايهمنى ! ولا ارغب الا فى شىء واحد وهو ان تخشانى روما وترتعد امامى !

وضربت المرأة ، عشيقة قيصر وأخته ، كلا من الاشراف الرومانيين ثلاثين جلدة على مراى من الناس ، وردد الشعب الخائف الخانع :

ــ الامبراطور يلهو !

***

جاءته يوما المرضع « جونيا » التى حملته على ذراعيها طفلا ، وأرضعته لبن ثدييها ، وكانت تحنو عليه حنو الأم على ولدها ، وقالت:

ــ أى بنى قيصر ، جئت اطلب منك أن ترعى بعين عنايتك ابنتى « ستيلا » التى عرفتها طفلة ولعبت معها فى الطرق والغابات ، وقد أصبحت الآن فتاة كبيرة أبحث لها عن زوج بين شبان روما الأشداء النبلاء .

ووقع نظر الامبراطور على أخته فى الرضاعة ، فهاجت حواسه البهيمية ، وأراد أن يجعل من الفتاة الطاهرة خليلته !

رفضت المسكينة أن تنزل على ارادته ، وهال أمها أن ترتكب فى قصر

الامبراطور تلك الفعلة الشنعاء ولا تسقط قبة الفلك على الارض ، فرفعت يديها تتضرع الى الآلهة طالبة انقاذ ابنتها ...

لكن الآلهة لم تسمع نداءها ...

وشربت الفتاة السم فماتت ...

وشربت الأم السم فماتت أيضا ...

وجاء ابنها يحاسب الامبراطور على موت المرأتين ، فذبحه قيصر بيده على عتبة الباب ، وألقى جثته الى الخارج ، فلطخت بدمها بلاط الشارع ، ووقف الشعب حولها مبهوتا مذهولا ، وردد قائلا :

ـ الامبراطور يلهو !

❋ ❋ ❋

خرج كاليجولا مع فريق من رفاق اللهو للصيد والقنص في الجبال والهضاب ، فوصل الى ضفاف بحيرة «نيمي» التي كان الرومانيون يسمونها «مرآة ديانا» نسبة الى ربة الصيد ، ابنة جوبتير العظيم ، ديانا ، حارسة النباتات ، وصديقة الأزهار والرياحين .

مر الامبراطور بمعبد ديانا ، المشرف من فوق هضبة خضراء على البحيرة الهادئة ، فترجل عن حصانه « القنصل انسيناتوس » وطلب من الكهنة هناك ماء وخمرا ...

ووقع نظره على رئيس الكهنة ، فاذا به أمام شيخ جليل ، يمشي ببطء متكئا على عكاز . فسأل عن سن الرجل ، فقيل له انه يناهز المائة ، وانه يخدم « ديانا » منذ ستين سنة ...

فضحك الامبراطور وقال :

ـ اضربوا عنقه فانه من العار على روما أن يكون خادم ديانا شيخا هرما مثل هذا !

وضرب الجنود عنق الكاهن ...

وضحك رجال الحاشية مرددين :

ـ الامبراطور يلهو !

❋ ❋ ❋

ألقى كاليجولا نظرة حواليه ، فراقه ذلك الموقع البديع ، وقال لخادمه لوسيوس :

ـ ينبغي أن أقيم في هذا المكان بضعة أيام في السنة !

وحمل لوسيوس رغبة مولاه الى القناصل والقواد والمقربين من

قيصر ، فجعلوا يتسابقون في ارضائه ، وأسرعوا الى نقل سفينتين جميلتين من بحرنابولى الى بحيرة نيمى، وحملوا الخبر الىالامبراطور قائلين لهان فى استطاعته بعـــد ذلك اليوم أن يقضى أسبوعا أو أكثر فى احـــدى السفينتين ، فى ذلك المكان الذى وجد حظوة فى عينيه ·

وأمر قيصر بأن ينفق المال لتوفير أسباب الراحة فى السفينتين ، فصدع العمال والجنـــود ورجال القصر لأمره ، وأعدوا السفينتين لاقامة قيصر ···

نقلت اليهما الأسرة والمقاعد والوسائد من قصر كاليجولا · وجلس الموسيقيون فى الأماكن المعدة للجدافين · ووضعت سلاسل من الذهب والفضة محل الأشرعة · وعلقت فيها المصابيح الملونة · ومزجت زيوت المصابيح بالبخور والعطور ···

وتفرقت النساء في غرف السفينتين وعلى ظهريهما ، لخدمة قيصر ، وأصدقاء قيصر ·

وقضى كاليجولا ليلة فى احدى السفينتين وليلة فى السفينة الثانية · ثم عاد فقضى فى ذلك الفردوس العائم ليالى كثيرة ، خطر له فى احداها خاطر غريب ، فصاح بمن كانوا يحيطون به :

ــ كم معنا هنا من العبيد ؟

فأجابوه :

ــ فى هذا المركب ثلاثون عبدا · وفى الثانى عشرون ···

ــ اقذفوا بهم جميعا الى الماء !

فصدع الرومانيون الأشراف لارادة قيصر ، وألقوا العبيد فى اليم ، وجعلوا يضربون بالمجاديف كل من حاول النجاة منهم ، فغرقوا جميعا ، بين الصياح والقهقهة ، وردد الشعب المحتشد على شاطىء البحيرة :

ــ الامبراطور يلهو !

***

قيل لكاليجولا فى صـــباح يوم من أيام الخريف ، ان مؤامرة تدبر لاغتياله ، فعهد الى زبانيته بالبحث عن المتآمرين للقضاء عليهم ، وغادر روما مسرعا الى سفينتيه ، فى بحيرة نيمى ·

وأراد أن يقضى تلك الليلة فى سماع الأغانى والأناشيد ، فطلب الى النساء اللواتى فى السفينتين أن يسمعنه أحسن ماعندهن من غناء ·

وجعلت كل واحدة من أولئك الأسيرات الغريبات تترنم بأنشـــودة

من أناشيد وطنها ، فتصاعدت من السفينتين ألحـــان متباينة ، ولغات مختلفة ، ولهجات متناقضة ، وامتزجت في ذلك الجو الهادىء ٠

واسترعت سمع قيصر أنشودة حزينة ، منبعثة من صدر مكلوم كانت تنشدها فتاة في العشرين من العمر ، جاثية على مقربة من سرير الامبراطور ٠

أومأ اليها كاليجولا بأن تقترب ، فنهضت مرتعشة خائفة ، وتقدمت خطوات نحوه ، وجثت ثانيا على ركبتيها ٠ فقال قيصر :

ـ انهضي ولا تخشي شيئا ٠ ما اسمك ؟

ـ سيفا ٠٠٠

من أية بلاد أنت ؟

ـ من مصر ٠

ـ من أبوك ؟

ـ اسمه « بروكلوس » ٠ كان جنديا في الجيش الروماني هناك ، وتزوج امرأة مصرية ، ثم مات وماتت أمي أيضا ، وجيء بي الى روما حيث أرسلوني هدية اليك يا قيصر !

ـ ومن جاء بك الى روما ؟

ـ الضابط ليبيدوس من رجال حرسك ياقيصر !

ـ ليقتل ليبيدوس وتلقى جثته في الماء !

فوثب الجنود على الضابط ، وقتلوه ضربا بالخناجر ، وألقوا جثته في البحيرة ، فتهامس المدعوون فيما بينهم : « ما الخبر ، ولمـــاذا حدث ما حدث ؟ »

ثم رددوا قائلين ، مبتسمين :

ـ الامبراطور يلهو !

***

وقال كاليجولا للفتاة المصرية :

ـ أعيدي على مسمعي الأنشودة التي كنت تنشدينها ٠٠٠

وأمر بأن تسكت النساء في السفينتين ، ثم ارتفع صوت عذب ، جميل ، مترنما بأغنية يذكر لحنها بنوح اليمام على الأغصان :

« في الدنيا بحار كثيرة

« لكنك أجمل البحار ٠٠٠

« فى الدنيا أنهار كثيرة
« لكنك أجمل الأنهار ...
« أمي على شاطئك تغنى
« وأخي على ضفافك يزرع ...
« يا بحر أمي ـ يا نهر أخي ـ
« يا أجمل البحار ـ يا أجمل الأنهار !

سكتت الفتاة . وساد الصمت . ونفرت دمعة من العين التى لم تعرف الدموع من قبل : عين قيصر كايوس جرمانيكوس كاليجولا !

وقال الامبراطور :

ـ اى بحر تغنين يا ابنتى ؟

ـ بحر الاسكندرية يا قيصر !

ـ واى نهر تغنين ؟

ـ نهر النيل يا قيصر !

ـ من علمك هذه الانشودة ؟

ـ أمي !

أنا أيضا أعرف هذه الانشودة . فقد كانت جونيـــا ، مرضعتى ، أمي ، تترنم بها على ضفاف النهر الصغير حيث ربيت ! وجونيا رأت النور فى مصر ، مثل أمك يا بنيتى . وقد قتلت جونيا بيدى !

ونفرت دمعة ثانية من عين قيصر . ثم استطرد يقول :

ـ لقد عرفت بحر الاسكندرية وانا عائد مع أبى فى ســفينة من سورية . ولكننى لم أعرف النهر الذى حدثتنى عنه جونيا ، والذى تقولين انه أجمل الأنهار يا سيفا ..

وتجرأت الصبية فقالت :

ـ ان الذين لم يروا البحر يا قيصر يعتقدون أن النيل هو البحـــر وكانت أمي تقول ان البحر قد تجف ماؤه ولكن النيل لن ينضب معينـه أبدا ، لأنه ينبع من جبال السماء مقر الآلهة !

ـ اذن ، سوف أذهب الى مصر ، وآخذك معى ياسيفا ، وســوف نلقى بالناس أفواجا فى مياه النهر العظيم ، لكى نرى كيف يغرقون هناك بعد أن رأينا كيف يغرقون هنا .. !

وارتعشت الفتاة أمام نظرات ذلك المجنون الحـــاكم بأمره ، وتمنت

بينها وبين نفسها ، أن يموت قبل ان ينفذ رغبته ، ويذهب الى البلد الذى رأت فيه النور ، ويغرق الناس فى النهر الذى لعبت طفلة على ضفافه ، وكان أبوها يصطاد فيه السمك بصنارته ، وكانت أمها تعده للأسرة طعاما شهيا ٠٠ !

بل تمنت الموت لنفسها ، لأن فى الموت وحده الخلاص من تلك البؤرة التى شاء سوء حظها أن تساق اليها !

وفجأة ، انطلقت من فم الامبراطور صيحة من صيحاته الهمجية ، دوت كالرعد فى سكون ذلك الليل :

ـ لقد مللت « مرآة ديانا » كما مللت روما وضوضاءها ! لا أريد أن اهجر هذا المكان الا بعد أن اترك فيه اثرا للأحقاب المقبلة . عودوا جميعا الى البر ، بعد أن تفتحوا فى كل من السفينتين ثغرة كبيرة تتدفق منها المياه الى الداخل ، فتغرق هاتين الجنتين العائمتين ، بما فيهما من تحف وكنوز وأموال وطنافس !

ثم التفت قيصر الى الفتاة المصرية وقال :

ـ أما أنت يا ابنتى ، فاننى سأجعلك بين نساء القصر معززة مكرمة ، وأجعل منك الزهرة النضرة فى حديقة كاليجولا !

فجفلت الحسناء ، وهالها أن يعدها الامبراطور لتكون لعبة بين يديه وأن يقضى عليها بأن تعيش فى جواره ، فهى تعرف ما حدث لغيرها من النساء ، ولا تجهل ما طبع عليه كاليجولا من شر مقيم ، وقسوة تتضاءل أمامها قسوة النمرة ، وتعطش الى التعذيب والتنكيل وازهاق الأرواح !

لا ٠٠ لن تكون سيفا واحدة من نساء قيصر ! ولن تذهب الى مخدعه حتى ولو كان صادقا فى وعده بأن يأخذها معه الى مصر وطنها ، والى بحر الاسكندرية ونهر النيل !

نزل كاليجولا الى البر ٠

وبينما الرجال والنساء يغادرون السفينتين على أثر قيصر ، اذا برسول يحمل خبرا من روما :

ـ قيصر ! لقد تمكن رجالك المخلصون من القبض على المتآمرين !

ـ وماذا صنعتم بهم ؟

ـ ذبحناهم !

ـ كم كان عددهم ؟

ـ تسعة رجال وامرأة ٠

ـ حسنا صنعتم ... والشعب ؟

ـ انه يتضرع الى الآلهة بأن تطيل عمر قيصر ! وقد ذبحنا المتآمرين تحت سور «الكابيتول» فى حين أن الشعب يردد :

ـ الامبراطور يلهو !

***

جلس كاليجولا على ضفاف البحيرة ، فى مكان مرتفع ، يحيط به رجال الحاشية ومن كان فى السفينتين من عبيد واماء ..

ولبث الجميع ينتظرون غرق السفينتين...

وبينما المياه تتدفق الى داخلهما ، وتغور « الجنتان العائمتان » رويدا رويدا فى الماء ، اذا بصوت حزين ، بعيد ، ينوح منشدا :

« يا بحر أمى ـ يا نهر أخى ـ

« يا أجمل البحار ـ يا أجمل الانهار ! »

فانتفض قيصر ، وقد عرف صوت الفتاة المصرية ، وسأل قلقا مضطربا :

ـ أين هى ؟ ومن أين مبعث الصوت ؟

فسكت الجميع لأنهم أدركوا ان الفتاة بقيت فى السفينة ، وآثرت الموت غرقا على الحياة فى روما ، والرقود فى قاع البحر على الرقود فى مخدع قيصر !

وضمت المياه فى أحضانها سفينتى كاليجولا ، بكنوزهما ، وأزهارهما ومن بقى فيهما من الاحياء ...

ووجم قيصر ، وظل يحدق البصر فى الأمواج المتكسرة على صخور الشاطىء ، وكلمات الفتاة ترن فى اذنيه :

« يابحر أمى ! يانهر أخى ! » .

« يا أجمل البحار ! يا أجمل الأنهار ! » .

ونفرت دمعة ثالثة من عين الامبراطور السفاح ، وردد المتفرجون على ذلك المشهد العجيب :

الامبراطور يلهو !

الأرجل المقطوعة

قصة الابن الثالث .
الذى خان اباه ثم خان رفاقه ، فقال له ابوه :
يا كلب الرجال !

سار أحمد بن طولون من مصر على رأس جيش لجب ، في سنة ٢٦٥ هجرية الموافقة لسنة ٨٧٨ للميلاد . فدخل المدن السورية واحدة بعد واحدة دخول الفاتح المنتصر . وقدم له الولاة والامراء والزعماء خضوعهم راضين او مرغمين . واعاد النظام والأمان الى تلك البقاع التي كانت الفوضى قد ضربت فيها اطنابها ونشرت عليها رواقها ، على اثر الخلاف الذي نشأ بين الخليفة العباسي أحمد بن جعفر الملقب بالمعتمد على الله ، وأخيه الموفق ، القائد المغوار الذي تغلب نفوذه على نفوذ اخيه، فانتقلت اليه مقاليد السلطة دون الخليفة ، وتسربت الى خزائنه اموال الدولة بدل ان تذهب الى بيت المال .

كان احمد بن طولون قد استقل بالحكم في مصر استقلالا تاما . ولكنه بقي محافظا على التقاليد وظواهرها . فلم يقطع علاقته بالخليفة بل ظل يتودد اليه ويدفع لخزينة الدولة ما يستحق لها من خراج مصر . وعندما نجح « الموفق » في تحقيق أغراضه وبلوغ أهدافه ، فأبعد أخاه « المعتمد » عن عاصمة الخلافة وابقاه اسيرا في سلاسل مذهبة ، يترك له من الملك مظاهره وزخارفه ويستأثر هو بمغانمه وفوائده ؛ أدرك المعتمد انه خدع وان الخادع هو أخوه وان لا بد من يد قوية تعينه وتعيد الامور الى نصابها . وبعد التفكير الطويل عول الخليفة على طلب النجدة من صديقه أحمد بن طولون ، فاستنجد به مفضلا الحرية تأتيه على يد الغريب ، على الأسر تزجه فيه يد القريب .

وكان احمد بن طولون عند حسن الظن به فزحف على سورية ، وما عتمت اعلامه ان خفقت على المدن والولايات التي كان اصحابها موالين للموفق ، يتزلفون اليه ويخضعون لاوامره دون الخليفة المبايع ..

وأعاد احمد بن طولون الى البقاع التي احتلها واقام فيها الحاميات ، حالتها الطبيعية والامن والعدل . فتمتعت سورية ردحا من الزمن بما كانت تتمتع به مصر من رخاء وازدهار .

ولكن الاقدار كانت لاحمد بن طولون بالمرصاد . فحدث له ما حدث للمعتمد . وبعد ان ذهب لنجدة الخليفة ونصرته على اخيه ، اضطر الى العودة مسرعا الى مصر ، لانقاذ نفسه وعرشه من خيانة ذويه .

ولم يكن الخائن غير ابنه ، واسمه أيضا احمد !

***

في قاعة فاخرة الرياش ، تشرف نوافذها على الحديقة الغناء ، في قصر أبي العباس احمد بن طولون ، في مدينة القطائع ، الممتدة بين المقطم والفسطاط ، جلس ثلاثة أشخاص يتســـامرون ويتداولون ويتآمرون . احمد الملقب بأبي العباس ، النجل الأكبر لاحمد بن طولون حاكم مصر ، وعمر القائد الذي كان رجال الجيش يخلصون له الاخلاص كله لشجاعته ومهارته ، وفتاة بهية الطلعة وضاحة الجبين ساحرة اللحظ ، كان الناس يرونها تتردد على قصر الامير احمد ، ولا يعرفون عنها شيئا غير اســمها : « عابسة » .

قالت الفتاة :

ـ أرى أن الفرصة ســـانحة الآن للاقدام على تنفيذ ما عولنا عليه يا احمد . فان أباك غائب عن البلاد ولابد أن يطول غيابه شهورا ان لم اقل أعواما . فاما ان نغتنم هذه الفرصة ، واما ان نعـــدل نهائيا عن عزمنا .

فأجاب احمد :

ـ اصبت يا عابسة . ولكن على صديقنا وحليفنا « عمر » أن يعد عدته ويضمن لنا ولاء الجيش . فهل تشير علينا ياعمر بالعمل في الحال أو تؤثر الانتظار ؟

فقال القائد عمر :

ـ لقد اقسمت لك يا مولاى أن أكون شريكك في شق عصا الطاعة على أبيك احمد بن طولون ، وأن اقود الجيش لمحاربته ، وأن أرفعك الى سرير الملك على أكف الجنود وتحت قباب من السيوف والرماح . وانني لعلى استعداد للعمل في الحال . فما عليك الا أن تأمر . فأمرك لا مرد له !

فوقفت عابسة والشرر يتطاير من عينيها ، وقالت ، ويدهـــا على قبضة خنجر مرصع بالجواهر مخبوء في نطاقها :

ـ لقد أزفت الساعة يا أبا العباس لكي تجلس على عرش من العار أن تترك أباك ابن طولون جالسا عليه . واذا كان عمر قد اكتسب لك قلوب فريق من جنوده ، فانه لا يبقى علينا الا أن نمضي فيما عزمنا عليه . فلنحمل مايوجد في بيت المال من ذهب وفضة ، وما تحويه قصور أبيك من جواهر وحلي وتحف ورياش ، ولنسرع الى مكان قصي ننظم فيه شئوننا ، ونجمع صفوف أنصارنا ، ثم نزحف بجيش قوي كامل العدة والعدد ،

لاحتلال عاصمة الملك واسقاط احمد بن طولون عن العرش والمناداة بك أنت ملكا على مصر !

فنهض أبو العباس من مكانه ، واقترب من الحسناء وأخذ رأسها بين يديه وقال :

ـ عابســـة ! لو لم تقذف بك الاقدار في طريقي ، ولو لم تصبني السهام المنبعثة من الحاظك ، ولو لم يعض الحب قلبي بأنيابه ويلقيه خافقا مرتعشا على قدميك ، لما فكرت يوما في الاقدام على عمل مثل هذا الذي عزمنا عليه ! فسأسير معك الى النهاية ، واذا كنت ارغب في الجلوس على عرش أغتصبه من أبي ، فلأنني أريد أن اقتسمه معـــك وأجلسك عليه بجانبي ٠ ولكن قولي لي : من أنت ، ومن أين قدمت ، وما الذي يدفعك الى تحريضي على أبي ، والى أي غرض ترمين ؟

فطوقت عابسة بذراعيها عنق الابن الجانح الى الخيـــانة ، وقالت بصوت رخيم :

ـ احمد ! لقد وعدتك بأن أبوح بسري عندما يكلل النجاح مساعينا ٠ ويكفيك الآن أن تعلم أنني جميلة ، وأنني أحبك ، وأنني لا أرغب الا في شيء واحد : وهو أن أراك عظيما ، قويا ، صاحب عرش وسلطان !

٭٭٭

شق أبو العباس احمد عصا الطاعة على أبيه احمد بن طولون ٠ وحمل الاموال والنفائس التي استطاع حملها من بيت المال وقصور أبيه ، وجمع حوله لفيفا من الناقمين وسار بهم الى « برقة » تصحبه الفتـــاة مشيقته «عابسة» المجهولة الأصل ، ويشرف على ركبه صديقه القـــائد عمر ، شريكه في خيانة سيده ٠

وبلغ خبر العصيان مسامع أحمد بن طولون وهو في سورية يقارع الجيوش ويهاجم الحصون ويفتح المدن ويقهر الأعداء ، فعز عليه الأمر وغضب على ابنه لجحوده وغدره ، وقرر الرجوع على أعقابه الى مصر لاعادة المياه الى مجاريها ، والاقتصاص من الخونة المارقين ٠

وصل الى مصر فلم يجد العصاة فيها ٠ وعلم أن ابنه أبا العباس احمد قد جاوز الى برقة وأنه يجمع جموع الناقمين ويلم شمل الانصار ويستعد للزحف على مصر ٠ فثار ثائر احمد بن طولون وسير على ابنه الجاحد جيشا أمر قائده بأن يمسك عن سفك الدماء ، وأن يأتيه بأبي العباس وصفوة انصاره الفارين اليه أحياء في الاقياد يرسفون ٠

فكان له ما أراد ٠٠٠

وبعد شهور معدودة جيء بأبي العباس وعمر وعشرات من العصاة الى احمد بن طولون ، أذلاء مقيدين . وأراد العاهل العظيم أن يمتحن ابنه وأن يعلم مبلغ اخلاصه لأولئك الذين اخلصوا له وحاربوا من أجله . فأمر باحضارهم جميعا الى قصره ، ودعا أقطاب الدولة الى مجلسه ، لكي يشهدوا محاسبة الخوارج على ما صنعت أيديهم .

وعندما التأم عقد المدعوين الى ذلك المجلس الرهيب ، وأخذوا مقاعدهم حول أحمد بن طولون الذى بدت عليه امارات الغضب الممزوج بالحزن ، وتلاطمت في صدره المشاعر المتباينة المتنافرة ، أومأ الى الحراس بأن يدخلوا الأسرى فأدخلوهم واحدا بعد آخر .

وكانوا جميعا رابطي الجأش رافعي الرؤوس ، كأنهم لم يندموا على عمل يؤنبون عليه ، ماعدا رئيسهم أحمد ، الذى من أجله صنعوا ماصنعوا . فقد انتابته رعشة الجبن فكان أمام أبيه رعديدا بقدر ماكان مع أنصـــاره متبجحا متعجرفا :

القى أبو العباس احمد بنفسه على قدمي ابن طولون ، وجعل ينتحب ويضرب صدره بيديه نادما مستغفرا طالبا الرحمة والشفقة ، مدعيا ان أصدقاء السوء قد أوغروا صدره على أبيه وخدعوه وطوحوا به في تلك المغامرة الطائشة !

ونظر اليه رفاقه ذاهلين مبهوتين ، وراعهم ان يكون الرجل الذى جازفوا من أجله بحياتهم جبانا وغدا الى هذا الحد !

ولكن احمد بن طولون لم يؤثر فيه بكاء ابنه ولم يصدر العفو الذى كان أبو العباس يأمله ويرجوه ، بل قطب جبينه وصاح بابنه الخـــائن قائلا :

ــ انك تستحق الموت ، ولكنني سوف انظر في أمرك وقد أبقى على حياتك لو اذعنت للأمر الذى اطلبه منك الآن !

ــ فقال أبو العباس :

ــ اطلب ما شئت يا أبي فانني فاعل !

ــ حتى ولو طلبت منك أن تقتل بيدك هؤلاء الذين ساهموا معك في الخيانة وشقوا عصا الطاعة علي ؟

ــ نعم !

ــ اذن ، خذ هذا السيف واقطع ارجل رفاقك الواحد بعد الآخر !

فتناول أبو العباس احمد السيف من يد أبيـــه ، وهجم كالوحش

الضارى على رفاقه وقد ركعوا على الارض امام ابن طولون ، وأهوى على اقدامهم بذلك السيف كأن شيطانا متعطشا الى الدماء قد تقمص فيه !

وشهدت تلك القاعة التي اجتمع فيها أقطاب الدولة منظرا لم يدون التاريخ مثله في صفحاته : منظر أمير ثائر يسفك دماء انصاره الذين دفعهم الى الثورة فاندفعوا معه على أمل أن يكافئوا على صنعهم ، فكان نصيبهم أن تقطع أرجلهم بيد ذلك الأمير !

واصطبغت أرض القاعة بالأحمر القاني . وارتفعت أصوات الجرحى باللعنات الموجهة الى ذلك الذى خانهم بعد أن خان أباه . ووقف احمد ابن طولون وغطى وجهه بطرف ردائه وصاح بابنه السفاح قائلا :

ـ كفى : كفى يا كلب الرجال !

ولكن أبا العباس مضى في الضرب على أرجل الراكعين . فصـــاح ابن طولون برجاله :

ـ خذوا السيف من يده وأوثقوه ! انه لعار على أسرة طولون ان يكون هذا الوغد منها !

فانتزع الجند من يد أبي العباس سيف أبيه الذى لم يشهر الا في وجوه الابطال في ميادين الوغى ، والذى لطخه ذلك الابن العقوق بدم أنصاره ومريديه ...

وأمر ابن طولون أن ينقل الجرحى من ذلك المكان وتضمد جراحهم . وعندما هم الجند بنقلهم ، ارتفع صوت لم يعهد الحاضرون مثله بين أصوات الرجال ...

ـ دعوني .. دعوني .. لئن كان قطع الرجـــل لم يمتني ، فان النصل المستقر في صدرى لكفيل بأن يميتني !

وتمتم بعض الحاضرين :

ـ صوت امرأة !

نعم . كان ذلك الصوت صوت امرأة . صوت عابسة ، الفتـــاة الحسناء ، التي اغرت أبا العباس على الثورة فثار ، ووقعت أسيرة في أيدى رجال ابن طولون فقادوها الى ذلك المجلس مع بقية الأنصار ، بدون أن يعلم احد من الجند أن ذلك الفارس الأمرد ، الملتحف برداء ناصع البياض ، هو امرأة خاضت غمار الحرب من اجل رجل . فكانت أول ضربة من سيف ذلك الرجل موجهة اليها . قطعت قدمها وتركتها مهشمة دامية !

تقدم منها ابن طولون ، ورفع رأسها بيده ، وقال :

ـ من أنت ؟ وما شأنك بين هؤلاء الرجال ؟

فأجابت الفتاة بصوت متهدج ونبرات متقطعة :

ـ يا ابن طولون : أتذكر « ست الدار » ؟

ـ ست الدار ؟ تلك المرأة التى اقامت فى كنفى ثلاثة أعوام ، ثم أمرت بقتلها لأنها تآمرت على ؟

ـ ان ست الدار لم تخطىء فى حقك ولم تشترك فى مؤامرة عليك ٠ وانما ابنك هذا ، الذى وصمته أنت بأنه وغد خائن ، كان يراودها عن نفسها فنفرت منه ٠ فأوغر صدرك عليها وحملك على قتلها ٠ انها كانت شريفة النفس طاهرة الذيل ٠ وقد ذهبت ضحية وشـــاية ابنك هذا ، وضحية تسرعك فى الغضب !

ـ وأنت ؟ من أنت ؟

ـ أختها ٠ لقد كنت على بينة من أمرها ولكننى لم أجرؤ على الجهر بالحقيقة خوفا منك ومن أبى العباس ٠ فعمدت الى الانتقام منكما ، للأخذ بثار أختى التى قتلتها ظلما وعدوانا ٠ وقد تم لى ما أردت ٠ لاننى نغصت عليك حياتك ٠ فجعلت من ابنك خائنا وغدا سفاحا ٠ وجعلت منك أبا قاسيا خائب الآمال !٠٠٠

قالت عابسة هذا وأغمضت عينيها ، ووضعت يدها على صدرها ، وبدا على وجهها شحوب الموت ٠٠٠

لكن احمد بن طولون ، الذى اثارت كلمات الفتاة فى نفسه ذكريات مؤلمة ، عاد الى سؤالها وقد وضع راسها على صدره .

ـ وما اسمك أنت ؟ وكيف السبيل الى انقاذك والتكفير عن سيئة ارتكبتها نحو أختك التى كنت أحبها ، وما قتلتها الا مدفوعا بعامل الغيرة وشدة الحب ؟

فتمتمت الفتاة :

ـ اسمى « عابسة » منذ اليوم الذى ماتت فيه أختى ، لاننى أقسمت الا ابتسم الا بعد أن اثار لها ٠٠٠ أما الآن ، فاننى أمرت باسمى الحقيقى « سلوى » ٠

ـ ان هذا الجرح لن يميتك يا سلوى !

ـ ولكن هنا ... فى صدرى ... جرحا آخر لا يرحم ...

فكشف أحمـــد بن طولون عن صدر الفتاة رداءها ، فاذا به أمام خنجر لستقر نصله فى الصدر وتجمد الدم حوله !

كانت عايسة ـ أو سلوى ـ قد اغمدت ذلك النصل فى صدرها ، مخافة ألا تكون ضربة السيف التى قطعت قدميها كافية لقتلها فماتت بين يدى أحمد بن طولون ، قاتل أختها ٠٠

***

وأمام ذلك المنظر الرهيب ، منظر الارجل المقطعة ، والدماء المتدفقة ، والارض الملطخة ، والفتـــاة الميتة ، وقف أحمد بن طولون برهة صامتا جامدا ٠ ثم أشار الى رجاله بأن يخرجوا ابنه أبا العبـــاس من القاعة الحمراء ٠ وقال بصوت كأنه منبعث من أعماق قبر :

ـ خذوه الى السـجن ٠٠ بل اقتلوه شر قتله ! لو كنت مكانه ، وأمرنى أبى بأن أقطع أرجل أصدقائى ورفاقى وأنصارى ، لقطعت عنقى بيدى قبل أن أمس الذين خدمونى ونصرونى بسوء !

فقتل أبو العباس أحمد فى سجنه !

ودفنت الفتاة سلوى فى جوار أختها ٠٠

أما الذين قطعت أرجلهم ، فقد مات بعضهم وبقى البعض الآخر على قيد الحياة ٠ فأمر أحمد بن طولون بايوائهم فى القصر ٠

وجعل ابنه « خمارويه » وريثه على عرش مصر ٠٠

فخلفه فى سنة ٢٧٠ هجرية الموافقة لسنة ٨٨٣ للميلاد ٠

كَوْثَرْ

الغيرة دفعت بها إلى **الجنون** ، وبسبب **جنونها**
أنشىء « **المارستان** » **في مصر** !

أرسل خمارويه بن أحمد بن طولون في طلب «ابن يعقوب» الطبيب القبطي الذي يقر الجميع بعلمه وبراعته وقال له :

ـ يا ابن يعقوب · انني أضع فيك أملي وثقتي · لقد قيل لي انك الرجل الوحيد الذي في مقدوره أن يشفي زوجتي المحبوبة كوثر من الداء المجهول الذي تشكو منه · وكوثر يا ابن يعقوب نصرانية النشأة مثلك . اعتنق ابوها القبطي الاسلام فحذت حذوه . ووقع عليها اختياري فاتخذتها زوجة لي · وأحللتها بين نسائي مكانة سامية · فهي أحبهن الى وأبعدهن سلطانا علي · وهي الآن مريضة ولن أبخل بمال أو جاه على من يشفيها من مرضها · فكن انت ذلك الطبيب الشافي ولك مني ما تريد !

فأجاب ابن يعقوب :

ـ سأكون عند حسن ظنك أيها المولى · وسأبذل في سبيل شفائها علمي ووقتي ومهارتي !

***

تولى خمارويه الحكم في مصر بعد موت أبيه أحمد بن طولون في سنة ٢٧٠ للهجرة الموافقة لسنة ٨٨٣ للميلاد · فنسج على منوال أبيه العظيم ، في ادارة شئون مملكته وتوسيع حدودها ، واعلاء كلمة الطولونيين في الاقطار الاسلامية ، وتشييد المساجد والقصور في مصر ، واقامة العدل بين الرعية ·

وكان جنديا شجاعا وقائدا محنكا واداريا حازما · يعمل لتقوية دعائم ملكه ويستغل مواهب النوابغ من رعاياه ، بدون استثناء ·

قيل له ذات يوم ان الفتاة كوثر ، ابنة أحد رجال الحرس ، الذي اعتنق الاسلام في عهد ابن طولون ، أبرع بنات مصر جمالا ، وأفتكهن لحظا · فارسل في طلب أبيها ، ورغب اليه في اتخاذ ابنته زوجة له · وما أقامت كوثر في قصر خمارويه بضعة أيام حتى كان الطولوني قد أخذ بسحر عينيها ، وشعر بأن تلك المرأة المصرية السمراء قد ملكت حواسه وقيدت قلبه بسلاسل الحب · فاضحى لها عبدا ، واضحت له خادمة طائعة !

ولكن القصر كان يعج بالنساء اللواتي جيء بهن من مصر والشام وبلاد الكرج والشركس وغيرها من الانحاء • فجعلت كوثر العاشقة المعشوقة تتميز غيظا ، وتتقلب على جمر الغيرة ، وتنظر بعين الكره والغضب الى أولئك النسوة اللواتي يشغلن زوجها المحبوب عنها من وقت الى آخر • وهي التي كانت تود أن تستأثر به لنفسها ليلا ونهارا •

ذاقت كوثر انواع الآلام النفسية ، والعذاب المبرح القاسي الذي يعرفه العاشقون المتيمون . والذي يذيب الجسم ويفقد الصواب •

وفي صبيحة يوم شديد القيظ . سمع سكان القصر صياحا عاليا ينبعث من خدر الزوجة المحبوبة .

وخرجت كوثر الى القاعات الرحبة • وجعلت تعدو فيها صارخة باكية ضاحكة ثائرة ••

وهكذا انتهى الحب بها الى الجنون !

***

مرت أيام على ذلك الحديث الذي دار بين خمارويه والطبيب القبطي ابن يعقوب • وكان الزوج لا يفارق زوجته لحظة واحدة • يرقد بجانبها ويهدىء ثورانها ، دون أن يفطن الى الحقيقة المؤلمة ، وهي أن زوجته المحبوبة قد جنت من شدة حبها وانه الجاني عليها !

وقال الطبيب القبطي كلمته التي أملاها عليه العلم : « لا سبيل الى الشفاء الا بوساطة علاج خاص ينفذ بدقة وعناية • واذا كان خمارويه ابن احمد بن طولون يرغب في القيام بعمل يعيد الى زوجته عقلها الشارد الضائع ، ويسجل له الأيادي البيضاء الى الابد ، ويجعل الاحقاب تتناقل اسمه مصحوبا بالدعوات الطيبة ، ويترك في مصر ذكرى لن تمحوها الدهور في المستقبل ، فعليه أن ينشيء في عاصمة ملكه دارا لمعالجة المعتوهين والمجاذيب والمجانين ، وأن يفتتح الدار بنفسه ، ويدخل اليها زوجته المحبوبة لكي تخرج منها بعد مدة من الزمن وقد شفيت مما الم بها!»

فشيد خمارويه تلك الدار التي أشار الطبيب القبطي بانشائها . فعرفت باسم « المارستان » وقد عزا المؤرخون خطأ فضل تشييدها الى أبيه أحمد بن طولون •

واول من دخل « المارستان » للمعالجة « كوثر » القبطية المسلمة ، زوجة خمارويه ، وقد خرجت من الدار سليمة العقل والجسم معا !

وعادت كوثر الى قصر زوجها ، وعاد معها الحب ، واهمل خمارويه نساءه الكثيرات من أجل الحبيبة المختارة •

يحنقن عليه . وجعلت أكثرهن غيرة وأبعدهن حسدا وأمهرهن في دس الدسائس وحبك المكايد توغر صدور النساء الأخر . وأخذن يتآمرن مع رجال الحاشية والحرس ، ويبذلن في سبيل ذلك المال والجمال . تكونت منهن ومن شركائهن عصبة شريرة تعنت بخمـــارويه والفتك به عندما تسنح الفرص !

❊❊❊

في ١٩ رجب سنة ٢٧٩ للهجرة الموافقة لسنة ٨٩٢ للميلاد ، بويع بالخلافة أبو العباس بن أحمد الموفق المعروف بالمعتضد بالله وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين .

وعزم خمارويه بن أحمد بن طولون على ايفاد رسول من لدنه يحمل الى الخليفة ببغداد الهدايا الثمينة . فأرسل في طلب صديقه الحسين بن عبد الله ، المعروف بابن الجصاص ، وأبلغه قراره في ايفاده رسولا الى المعتضد بالله . فتلقى الجصاص قرار مولاه بالرضا والارتياح ، وانصرف من القصر على أن يعد العدة للسفر الى مقام الخليفة .

وخطر له خاطر وهو في طريقه . فجعل يفكر في وسيلة لاستغلال ذلك الخاطر واحراز المغانم من الخليفة ومن خمارويه في آن واحد .

كان ابن الجصاص يعلم أن لخمـــارويه ابنة حسناء تدعى « قطر الندى » وأنها تفوق نساء عصرها على الاطلاق . فعزم على أن يعرض على المعتضد اتخاذها زوجة لابنه علي ، ليأمن العباسيون في مستقبل الأيام شر الطولونيين ويطمئنوا فيهم ، بوســـــاطة ذلك الزواج ، روح التمرد والعصيان .

وبعد أيام ، شد ابن الجصاص الرحال الى المعتضد بالله العباسي ، ومعه الهدايا من الذهب عشرون حملا على بغال وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طراز وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بفضة كثيرة ومعهم حراب من الفضة وعليهم أقبية الديباج والمنـــاطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة من الذهب والباقي من الفضة وسبع وثلاثون دابة محملة أشياء أخرى كثيرة . .

ووصل ابن الجصاص الى المعتضد بالله ، فقبل الخليفة هدية صاحب مصر وخلع على الرسول وعلى سبعة أشخاص معه .

ثم أفضى ابن الجصاص الى الخليفة بخبر الفــــــتاة ، وقال له ان لخمارويه ابنة فاتنة خليقة أن تكون زوجة لولي عهـــد الخلافة ، علي ابن المعتضد بالله .

وما ان سمع منه أبو العباس هذا حتى انتفض وقال :

ـ لقد بلغني خبر الحسناء يا ابن عبد الله ٠ فاعهد اليك الآن فى ان تطلبها من خمارويه زوجة لى ٠ ان عليا ليس فى حاجة الى زوجة كقطر الندى ، فهى تليق بالمعتضد بالله !

رفع الخليفة رسول خمارويه بعشرة آلاف دينـــار ، وألح عليه بوجوب العودة الى مصر على جناح السرعة ؛ لابلاغ الطولونى رغبة المعتضد بالله وارادته !

***

مضت سنة ، ثم أخرى ٠٠

وفى محرم سنة ٢٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٩٥ للميلاد ، وصل بغداد موكب فخم ، يقوده ابن الخصاص الحسين بن عبد الله ، وفى وسط الموكب هودج فيه ابنة الطولونى قطر الندى ، التى أرسلها أبوها زوجة للخليفة العباسى ٠

وكان ابن الخصاص يحمل ايضا هدية ثمينة ويصطحب معه عم الفتاة ٠ فكتب المعتضد بالله كتابه على قطر الندى ، وادخلت الحرم ٠ ثم زفت الى الخليفة فى شهر ذى القعدة من تلك السنة ٠

وقال الشاعر :

يا ســـيد العرب الذى زفت له
باليمن والبركات ســـيدة العجم
اسعد بها كسعودها بك انهـــا
ظفرت بمـــا فوق المطالب والهمم
ظفرت بمالىء ناظريهـــا بهـــجة
وضميرها نبلا وكفيهـــا « كرم »
شمس الضحى زفت الى بدر الدجى
فتكشفت بهمـــا عن الدنيا الظلم

وولى المعتضد بالله خمارويه بن أحمد بن طولون على الشام وحلب ، ورتب عليه أموالا وافرة فى حكم مصر ، وقطع على نفسه عهدا بأن يعاقب كل من يتمرد على حميه ويعلن عليه العصيان ٠

وأوفد ابن الخصاص الى مصر ، ومعه الهدايا الفاخرة ٠٠

وقبل أن يصل ابن الخصاص الى مصر ، كان خمارويه قد رحل عنها الى وقت ، فأقام في قصره بدمشق ، في سفح الجبل الذى فوق المدينة ، وأخذ معه نساءه جميعهن وفي مقدمتهن كوثر ٠

وكان عند خمارويه أسد رباه في قصره يمتــاز عن بقية الاسود بعينيه الزرقاوين ويخلص لسيده اخلاص الكلب الامين ٠

وكان خمارويه يعتقد أن أعداءه لن ينالوا منه منــالا مادام الاسد بجانبه ، يحرسه ويرد عنه الاذى ٠

ولكن حدث قبل رحيله عن عاصمته أن قالت له احدى زوجاته ، وهي اشد النساء كرها لكوثر :

ـ يقولون ياMولاى انك تعتمـــد على أسدك الاليف في الدفاع عن نفسك ، وان في عملك هذا جبنا يجب على من كان في مقامك أن يترفع عنه ! وقد أجبت من اطلعني على ذلك القول المتداول ، انك لن تصحب أسدك الاليف في رحلتك الى الشام ٠ فهل أحسنت أم أخطأت ؟

فقال خمارويه :

ـ لن آخذ الاسد معي الى الشام ٠ وسوف يعلم أولئك النمامون أنهم هم الجبناء !

ورحل خمارويه الى دمشق مع حرسه ونسائه وغلمانه ٠ ولكنه ترك الاسد الاليف في مصر !

***

كانت النســاء قد نجحن في احكام المؤامرة على خمارويه واشراك بعض قواد الجيش ورجال القصر فيها ، فعزم المتآمرون على تنفيذ خطتهم واغتنام فرصة وجود خمارويه في قصره بالشام لاغتياله ٠

ومما ســاعدهم على تنفيذ تلك الخطة ان الاسد الاليف الذى كان يربض دائما في غرفة سيده لم يكن معه في دمشق !

وفي أواخر ذى القعدة من تلك السنة التي زفت فيها ابنة خمارويه قطر الندى الى الخليفة العبـــاسي المعتضد بالله بن أحمد الموفق ، قتل خمارويه بيد « أبي الجيش » الذى ذبحه في فراشه في قصره بدمشق ، بمعاونة الخدم ورجال الحرس ، وبتحريض نساء الحرم الحواسد الغيرى!

وفي ٣ من شهر ذى الحجة بلغ المعتضد بالله خبر مصرع خمارويه في دمشق ، فأمر بقتــل عشرين من خدمه الذين باشروا ذبحه ، وكان « أبو الجيش » بين الذين قتلوا بأمر من الخليفة العباسي ٠

وأوفد المعتضد بالله رسالة الى ابن الخصاص طالبا اليه أن يعود أدراجه الى بغداد فعاد اليها ·

***

بكت قطر الندى أباها المحبوب ، وطلبت من زوجها الخليفة المعتضد ان يوفد الى دمشق من يأتى اليها بزوجة خمارويه كوثر التى أحبها أبوها حبا جما ·

فسألها المعتضد :

ـ ولماذا تريدين منى ياقطر الندى ان آتى اليك بزوجة أبيك ؟
فقالت ابنة خمارويه :

ـ اننى لا أضمر لها سوءا يا أمير المؤمنين بل أحبها · وقد كانت فى مصر صديقتى الوحيدة بين نساء القصر ، بعـــد موت أمى وأنا طفلة صغيرة · فاذا طلبت منك الآن أن تجيئنى بها الى بغداد ، فمـا ذلك الا لاننى أريد انقاذها من أيدى النساء الأخر ، اللواتى سيفتكن بها ويوردنها موارد الهلاك ·

فرضى المعتضد بالله أن يجيب زوجته الى رغبتهـــا ، وأوفد ابن الخصاص من جديد الى دمشق ، وزوده بالاوامر الصريحة ، قائلا له أن يترك نساء خمارويه وشأنهن فيرجعن الى مصر أو يبقين فى الشام ، وأن يعود اليه بكوثر الى بغداد ·

فشد ابن الخصاص الرحال الى دمشق · وبلغ قصر آل طولون فى سفح الجبل ، فاذا به يعج بالرجال والنساء ، وقد اختلط فيه الحابل بالنابل ، وعمت الفـــوضى ، وأطلق رجال خمارويه أيديهم فى السلب والنهب ، واستولوا على نساء سيدهم وراحوا يعيثون فى البلاد فسادا ويرهقون الناس ويستبدون بالعباد ·

بحث عن كوثر المصرية فلم يجدها ··

وعلم من جارية عجوز ، فى قصر خمارويه ، أن الزوجة المصرية ، خرجت من القصر على أثر مصرع زوجها ، ولجأت الى كوخ حطاب مصرى فى غوطة دمشق ·

فأسرع ابن الخصاص الى ذلك الحطاب وسأله عن كوثر ، وأبلغه أمر أمير المؤمنين باعادتها الى بغداد معززة مكرمة ·

فبكى الحطاب وقال :

ـ لأبذلن حياتى أيها المولى فى ســبيل العثور عليها · فقد كان

أبوها جارى فى مصر ، حيث كنا نصطاد السمك معا فى النيل · ولجأت كوثر الى كوخى الحقير بعد مقتل خمارويه ، ومكثت هنا مدة من الزمن ·· ثم اختفت منذ ثلاثة أيام ·

خشى ابن الخصاص أن يعود الى بغداد متعثرا بأذيال الفشل. فعزم على البحث عن المرأة ، وطاف الغوطة مفتشا فى أنحائها ، ومعه الحطاب المصرى يدله على الطريق ويرشده الى المخابىء ·

وبعد أربعة أيام عثر الرجلان على جثة كوثر ، طافية على مياه « بردى » ، وقد اكتنفها العوسج واحتضنها العليق ، فحاكت لها الطبيعة من نسيجها كفنا ، وصنعت لها من عشبها نعشا ! ·

بَدْرُ الدُّجَى

ماساة عاطفية تعرضت لها امراة عاشقة ، في غمـرة الأحـداث التي ادت الى قيـام الخلافة الفاطمية في مصر .

توفى محمد بن طفج الملقب بالاخشيد أى ملك الملوك بلغة أهـــل فرغانة ، سنة ٣٣٥ للهجرة ، الموافقة لسنة ٩٤٦ للميلاد ، وتولى بعده على مصر ولداه . ولكن كافورا مملوكه المعروف بالاخشيدى نســـبة الى سيده ، كان صاحب الامر والنهي في المملكة الى أن استأثر بالملك لنفسه ، فى سنة ٣٥٦ للهجرة الموافقة لسنة ٩٦٦ للميلاد .

كان كافور الاخشيدى من العبيد الخصيان ، اشتراه الاخشيد من نخاس حبشى بثمانية عشر دينارا ، فملك الديار المصرية والشـــامية ، وأجمع المؤرخون على أنه كان نابغة فطنا .

وقال عنه محمد بن عبد الملك الهمذانى :

« كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوما فى قصصه : انظروا الى هوان الدنيا على الله تعالى ، فانه أعطاها لقصـــوصين ضعيفين ، ابن بويه ببغداد وهو أشل . وكافور عنـــدنا بمصر وهو خصى ! فرفعوا الى كافور قوله وظنوا أنه يعاقبه ، فتقدم اليه بخلعة ومائة دينـــار وقال : لم يقل هذا الا من جفائى له ! فكان الواعظ بعد ذلك يقول فى قصصه : لم يكن نجباء من ولد حام الا ثلاثة : لقمان ، وبلال المؤذن ، وكافور ! »

وقد مدحه المتنبى بأبيات كثيرة منها :

قواصـــد كافور توارك غـــيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انســـان عين زمانه
وخلت بياضا خلفهـــا ومآقيـــا

وقال فيه يهجوه :

من علم الاســـود المخصى مكرمة
اقومه البيض أم آباؤه الســـود

أم أذنه فى يد النخـــاس دامية
وقدره وهـــو بالفلسين مردود

كان كافور الأخشيدي جالسا ذات يوم في قصره ، وحوله جماعة من رجاله وأنصاره ، فالتفت فجأة الى رئيس الغلمان وقال :

ــ ارسل غلمانك الى « عقبة النجارين » وليسألوا هناك عن شيخ منجم أعور . فان كان حيا ووجدوه فليأتوني به . وان كان ميتا فليسألوا عن أولاده .

فانطلق الغلمان للبحث عن الرجل ، وقال كافور لجلسائه :

« ان لذلك المنجم الاعور في عنقي دينا لا بد من وفائه . فقد مررت به ذات يوم وكنت حين ذاك عبدا رقيقا في ملك ابن عبـــاس الكاتب ، وكانت حالتي رثة . فلما نظر الى المنجم قال : ما اســـمك ؟ قلت له : كافور . قال : أنت ترتقي الى رجل كبير وتبلغ منه مبلغا عظيما ، ثم تملك هذه البلاد ويكبر اسمك بين العبـــاد ! » فنظرت الى جيبي لأعطيه شيئا فما وجدت سوى درهمين فاعطيتهما الرجل . ونسيته منذ ذلك اليوم . ولكني رأيته أمس في منامي ، فتذكرته وأرسلت الغلمان يبحثون عنه أو عن أولاده . فقد ارتقيت الى الأخشيد ، وبلغت منه مبلغا عظيما ، ثم ملكت مصر وكبر اسمي بين الناس كما تكهن لي المنجم . ولذلك فان له في عنقي دينا يجب علي وفاؤه كما قلت !

وبحث الرســـل عن الرجل الاعور في عتبة النجارين ، وعادوا الى سيدهم حاملين اليه الخبر اليقين : لقد مات المنجم وترك ابنتين : الواحدة تزوجت والثانية في انتظار الزوج .

فأرسل كافور في طلبهما ، واشترى لكل منهمـــا دارا ، ونفحهما بمال كثير ، وأدخل زوج الاولى في حاشيته ، وأجرى على الاسرتين الارزاق وأغدق عليهما العطايا .

***

كان يقيم في مصر في ذلك الوقت رجل افرنجي يدعى «جول بوارو» اعتنق الاسلام في بلاد المغرب ، وراح يضرب في طول العالم الاسلامي وعرضه ، ويتقرب الى الملوك والامراء والحكام . ويجمع في جعبته مايتيسر له من حجارة كريمة ، ونفائس شرقية ، على أمل أن يتاجر بها بعد عودته الى بلاده ، اذا عاد اليها ، أو الاستعانة بها على نفقات الحياة اذا سدت في وجهه أبواب الرزق في غربته .

وكان الناس يحسنون وفادة ذلك الافرنجي الغريب ، الذى فضل دينهم على دينه ، وأوطانهم على وطنه . ففتحوا له أبواب منازلهم ، وأحلوه في مجالسهم محلا محترما .

وقع نظره ذات يوم على فتاة بارعة الجمال ، فتبعها ، وتمكن من الوصول اليها . وما مضت أسابيع حتى كان الشاب قد علق بحبهـــا ، فجعل يرقبها في روحاتها وغـــدواتها . ووقعت الصـــبية أيضا في شرك الحب وخضعت لسلطـــانه ، فعلقت بذلك الغريب الظريف الجميل . وتواعد الاثنان على الزواج .

كان فن الرسم في ذلك الوقت بدائيا . ونقـــل ملامح الوجه على لوحات من الخشب أو قطع من القماش أو الجلد ، عملا شاقا لا يجيده غير القليلين ، اجادة على كل حال نســـــبية . وكان جول بوارو – او اسماعيل بوارو – من أولئك الفنانين القلائل . فصنع للمحبوبة رسما على رق أبيض ، حفره أيضا على صفحة معدنية ، وحفر اســـمها تحته : « بدر الدجى ! »

لكن الاقدار كانت تخبىء للعاشقين مفـــاجأة قاسيه . فان « بدر الدجى » لم تكن غير ابنة المنجم الثانية ، التى أبى كافور الاخشيدى أن يزوجها الشاب الافرنجي الغريب ، واختار لهـــا زوجا من قواد جيشه المقربين اليه !

ولم تجرؤ الفتاة على رفض ماأرادوه لها . واضطرت مرغمـــة الى الاذعان والنزول على رغبة كافور وهي أيضـــا رغبة أختها . فرضيت بالرجل الذى اختاروه زوجا لها . ولكنها بكت كثيرا ، وبكى معها الغريب الفنان العاشق حظه وسعادته !

ورحل بوارو الى القيروان.. وبقيت بدر الدجى مع زوجها في مصر.

***

التقى بوارو في القيروان بالطبيب يعقوب بن كليس اليهودى الذى اعتنق الاسلام مثله ، وخدم الاخشـــيديين في مصر فأساء إليه كافور في ســـاعة غضبه ورحل الطبيب الى القيروان حيث التجأ الى المعز لدين الله الفاطمي صاحب بلاد المغرب .

وجعل يعقوب بن كليس يوغر صدر المعز على كافور ، ويحثه على مهاجمته وانتزاع وادي النيل الخصب منه ، ونقل مركز الخلافة الفاطمية من القيروان الى مصر ، ومن ثم الى بغداد بعد طرد العباسيين منها ، لان الخليفة العباسي المطيع لله ابن المقتدر أضعف من أن يصد جيوش المغاربة عن الديار الاسلامية الخاضعة له .

وانضم الفنان الافرنجي المسلم ، اســـماعيل بوارو ، الى الطبيب اليهودي المسلم يعقوب بن كليس ، في سعيه لدى المعز لدين الله . وجعل الشريكان يفضيان الى الخليفة الفاطمي بمعلومات يجهلهـــا ، وتفاصيل

لم يسمع بها من قبل عن امتعاض المصريين من الحكم الاخشيدى ، وميلهم الى الفاطميين الذين يفاخرون بانتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وعن الكنوز الكثـــيرة المخبأة فى بطن الارض وتحت جدران المساجد ، والتى عثر على بعضها فى عهد الطولونيين وعهد الاخشيديين !

وكان المعز لدين الله يعلل النفس منذ اليـــوم الذى آلت فيه اليه الخلافة بالاغارة على مصر وفتحهــــا • فوجدت أقوال الرجلين هوى فى نفسه ، وعزم على تنفيذ الخطة التى فكر فى تنفيذها •

وحدث مرة أن أخرج بوارو من جعبته الرسم الذى كان لايفارقه ، فوضعه تحت أنظار المعز ، وقال ان صاحبة ذلك الوجه الذى حاول أن ينقل ملامحه وتقاطيعه الساحرة على الرق ويحفرها على معدن صلب ، هى احدى النساء اللواتى يحتفظ بهن الخصى الاسود فى قصره ، ويتقن الى النجاة والخلاص من جحيمه • وأضاف قائلا ان « بدر الدجى » حدثته عن المعز فى خلوة من خلوات القصر ، وأنه ما صنع لها ذلك الرسم الا نزولا على رغبتها ، واجابة لرجائها بأن يحمله اليه فى القيروان !

فضحك المعز ، وأجاب قائلا :

ـ سوف نرى ذلك أيها الغريب • وسوف نشاهد بدر الدجى فى قصرها بمصر قريبا بعون الله • فقد عزمنا على ارسال جيشنا الى ضفاف النيل ••

***

مات كافور الاخشيدى قبل أن تتدفق جيوش المعز على مصر ، وترك الملك من بعده لابى الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد ، وذلك فى سنة ٣٥٨ هجرية الموافقة سنة ٩٨٦ للميلاد •

وكان القائد الفاطمى المنصـــور قد احتل الاسكندرية وجعل يدير شئونها باسم الخلفاء الفاطميين •

وفى سنة ٣٥٩ هجرية ، الموافقة ســـنة ٩٦٩ للميلاد ، اغتنم المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور العلوى الفـــاطمى ، رابع الخلفـــاء الفاطميين ، فرصة انتشار الفوضى فى مصر ، فسير اليهـــا مولى أبيه « جوهر » فى مائة ألف مقاتل لفتحها ، فدخلها الجيش الغازى بلا حرب ولا قتال •

وكان القائد جوهر مملوكا روميـــا ، جاء به والد المعز من بلاد الصقالبة • فعرف فى المغرب باسم « جوهر الصقلبى » وحرف المؤرخون ذلك الاسم فيما بعد فجعلوه خطأ « الصقلى » نسبة الى جزيرة « صقليا » أو « سيسيليا » كما يسميها الافرنج •

دخل جوهر الصقلبى مصر ، وخطب فيها للمعز أيام الجمع ، وأمر المؤذنين بأن يؤذنوا : « حى على خير العمل » تنفيذا لارادة الفاطميين . فشق على الناس ذلك لكنهم صبروا لحكم الله ! •

وأرسل الى المعز يبشره بفتح الديار المصرية ، وبالخطابة له فى الجوامع ، وبأنه سيبنى بالقرب من مدينتى الفسطاط والقطائع مدينة جديدة تليق بالمعز لدين الله ثم يدعوه للانتقال اليها مع حاشيته ومعيته ونسائه وغلمانه ! •

ونظم ابن هانىء الاندلسى فى فتح مصر قصيدة امتدح فيها القائد جوهر الصقلبى مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وفى تلك السنة ، شرع جوهر فى بناء المدينة الجديدة شمال الفسطاط والقطائع ، وجعلها مربعة الشكل ، وشيد فيها قصرين لاقامة المعز لدين الله ، وأطلق على المدينة اسم « القاهرة المعزية » •

واسم « القاهرة » مستمد من كوكب « المريخ » أو « القاهر » لان أسس المدينة المعزية قد وضعت ، عملا باشارة علماء الفلك ، وبناء على رغبة المعز ، تحت سلطان ذلك الكوكب الجبار •

وبنى جوهر الصقلبى ، فى قلب المدينة الجديدة ، جامعا أطلق عليه اسم « الجامع الكبير أو الازهر » وجلب اليه العلماء والفقهاء من جميع الاقطار الاسلامية . فما لبث ذلك الجامع أن أصبح أكبر معهد اسلامى فى العالم •

واستغرق بناء القاهرة ثلاثة أعوام • وعندما أصبحت لائقة بالخليفة الفاطمى ، أرسل القائد جوهر يدعو مولاه الى القدوم للاقامة فى عاصمة ملكه الجديدة •

وفى سنة ٣٦٢ هجرية ، الموافقة سنة ٩٧٢ للميلاد ، قدم المعز لدين الله الى مصر • حاملا معه من بلاد المغرب والقيروان كنوزا لاتحصى ، وأطباقا من الذهب والفضة ، ومخطوطات نادرة وسجاجيد فارسية وجواهر ثمينة • وجيء له أيضا الى مصر بنسائه وغلمانه وجياده ورفات أجداده ، بحيث لم يبق فى القيروان والمغرب أثر ينم على قيام الخلافة الفاطمية فى تلك الديار !

ووصل المعز لدين الله الى القاهرة فى شهر رمضان من تلك السنة . وأقام فى القصرين اللذين أعدهما له قائده جوهر الصقلبى •

وجاء الى القاهرة مع القائد جوهر الطبيب اليهودى المسلم يعقوب

ابن كليس . وجاء اليها مع المعز لدين الله الافرنجي المسلم اسماعيل بوارو .

وتذكر المعز ، عندما حل فى القاهرة ، مانقله اليه الفنان الغريب عن الغادة الحسناء بدر الدجى ، وعن نساء مصر وجمالهن وسحرهن !

فأرسل فى طلبه ، وجاء معه صديقه الطبيب ابن كليس ، فقال المعز لبوارو :

ـ دلنى على بدر الدجى ايها الغريب . فاننى لم أجد لنساء الاخشيديين أثرا فى هذه الديار ، ولم أسمع عنهن شيئا . فماذا تعلم ؟

سكت الرجل هنيهة ، ثم ألقى بنفسه على قدمى المعز لدين الله ، وقال بصوت متهدج ولهجة المذنب النادم :

ـ لقد خدعتك يامولاى . فبدر الدجى ليست من نساء الاخشيديين ولم تكن قط من ساكنات قصورهم . بل هى فتاة أحببتها ففرقت الاقدار بينى وبينها ، وتزوجها رجل من رجال كافور الاخشيدى ، وقد بحثت عنها فى هذه البلاد بعد عودتى فعلمت أن زوجها فر مع الفارين ، ثم قتل فى عراك نشب بينه وبين بعض جنودك . فبدر الدجى تقيم الآن وحيدة منعزلة فى الدار التى أهداها اليها كافور !! !

وبعد فترة سكوت قال بوارو :

ـ والآن ، الامر أمرك يامولاى والارادة ارادتك . فماذا يجب أن أصنع ؟

فضحك المعز وقال للطبيب ابن كليس :

ـ مر لصديقك يايعقوب بما يحتاج اليه من مال ، فاننا نجرى عليه الارزاق ونعطيه فى القاهرة المعزية قصرا فاخرا . اما المرأة فاننا نتركها له . فلتكن له زوجة وليعد الى أحاديثه الغرامية معها . وأما نحن ، فاننا لم نفتح الديار المصرية من أجل نسائها ، بل من أجل اقامة الخلافة الفاطمية فيها ، وجمع كلمة المسلمين حول هذه الخلافة فى القاهرة المعزية .

***

تزوج جول بوارو . أو اسماعيل بوارو ، بدر الدجى . وقدجمعت الاقدار بينه وبينها بعد طول الفراق . وعاش الاثنان سعيدين فى ظل المعز لدين الله .

وعين الطبيب يعقوب بن كليس وزيرا للمعز . فكان ساعده الايمن في اصلاح شئون الديار المصرية .

وكان عهد المعز من أزهى عهود مصر .

وجمع الخليفة الفاطمي الى سعة الاطلاع والعلم ، تسامحا في الشئون الدينية ، ومهارة في الحكم والادارة ..

ولم يقم المعز لدين الله في مصر اكثر من ثلاث سنوات . فقد مات في سنة ٣٦٥ هجرية الموافقة سنة ٩٧٥ للميلاد .

الأعلام السّوداء

الخيانة تجر الخيانة ، والفجور عاقبته وخيمة ،
وقد صـدق من قديم الزمان القـول المأثور :
« بشر القاتل بالقتل ! »

دخل أسامة بن منقذ على صديقه نصر بن عباس فألفاه قلقـــا مضطربا ، يروح ويجيء في حجرته ، يجلس لحظة ثم ينهض مجفلا ويسرع الى النافذة يستنشق منهـا هواء الحديقـة المنعش . فوقف أسامة ينظر اليه مدهوشا حائرا ، يخاطبه فلا يجيب ، ويقترب منـه فينفر مبتعدا . فاستوى أسامة في مقعد من الوسائد الوثيرة ، وقال :

ـ لقد دعوتني يا نصر على عجل فوافيتك استجابة لدعوتك . وها أنت الآن تبدو أمامي كأن بك مسا من الجنون . فلماذا أنت على هذه الحال التي تقلقني ؟ وهل مجيئي الذي رجوته أنت ، أصبح الآن يزعجك ؟ . . انني اذن سأنصرف وادعك وشأنك !

فألقى نصر بنفسه على صدر صديقه ، وقال راجيا مسترحما :

ـ لا ، لا يا أسامة . .

لا يا أسامة ! . . لا تتركني وحدي ، والا أقدمت الليلـة على فعلة شنيعة مادعوتك الا لاستشارتك بشأنها !

ـ وأية فعلة شنيعة يانصر ؟

ـ انني في حيرة من أمري ، تتجاذبني رغبتان : قتل أبي ، أو مخالفة أمر مولاي الظافر .

ـ لا أفهم !

ـ سوف تفهم : لقد طلب مني الظافر بأمر الله اليوم أن أقتل أبي!

ـ اني لاأستكثر مثل هذا الطلب عليه . فقد ارتكب من الموبقات مايجعل حضك على قتل أبيك ـ بالنسبة اليها ـ نقطة في بحـر . وهل وعدته بتنفيذ أمره ؟

ـ وعدته بذلك !

ـ أيها الشقي ! الا يكفي ما ألحقه بك الظافر ، وما رضيت به أنت من خزي وعار ، حتى بلغ بك الجحود بذويك أن تتآمر على قتل الرجل الذي تدين له بالحياة ؟

ـ لقد غمرني الظافر بافضـــاله ومكارمه ونعمـــه ، فلا ينبغى أن ارفض له طلبا !..

ـ لقد غمرك على الخصوص بالنقائص والرذائل ، فجعـل اسمك مضغة فى الافواه ولطخة فى صفحة اسرتك الكريمة . وبعد أن جعل منك فتى فاسقا ، اراد الآن ان يجعل منك قاتلا يسفك دم أبيه !

ـ اسمع يا أسامة ...

ـ اسمع يانصر : ستقدم على القتـل ! ولكنك لن تقتل اباك ، بل تقتل الرجل الذى حرضك على قتل ابيك !

***

خرج أسامة من حجرة صديقه الشاب ، وهرول مسرعا الى عباس الصنهاجي والد نصر المفتون ، وقص عليه ماحدث ..

كان الظافر بأمر الله الفاطمى قد تبوأ عرش مصر فى سنة ٥٤٤ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٤٩ للميلاد ، واستوزر عباسا الصـــنهاجي واطلق يده فى شئون الدولة ، وكان لعباس ابن بهى الطلعة عذب الصوت حلو الحديث ، فاصطفاه الظافر صديقا له ، وقربه اليه ، وفضله على ندمائه جميعا ، واصبح لايطيق فراقه يوما واحدا . واغـدق عليه الهبات والعطايا بلا حساب ، فكان يوما يبعث اليه بعشرين طبقـا من الفضة عليها عشرون الف دينار ، ويوما يجعلها خمسين طبقا عليها خمسون ألف دينار ، وتارة يهديه مجموعة من الثياب المزركشة بالذهب والمحلاة بالجواهر مما لايقدر بثمن ، وتارة يقطعه مزرعـة من مزارع العرش . وكان آخر ماصـنعه معه أن ولاه اقليم قليوب بالقـرب من القاهرة !

ولكن الظافر الذى كان يخص بحبه الابن ، جعل يتململ من الاب ويخشى اتساع نفوذه وامتداد سلطته . ولم يكن ليجرؤ على عزله من الوزارة فعول على التخلص منه بأن حرض على قتله .

وأوشك الابن أن يقدم على هذه الجريمة ، نزولا على ارادة ولى نعمته ، وطمعا منه فى أن يصبح وزيرا بعد أبيه .

ولكنه لم يحسب حسابا لصديق أسرته مؤيد الدولة أسامة بن منقذ الكنانى . فان هذا الامير المؤرخ ، وهو من أرباب السيف والقلم ، كان قد لجأ الى مصر قادما من الشام ، ونزل ضيفا على الوزير عباس الصنهاجي ، فهاله ماسمعه عن انغماس الفتى نصر ابن صديقه ـ وقد عرفه طفلا رضيعا ـ فى بؤرة الفساد ، وانقياده للظافر فى فجوره ، فاعتزم

اصلاح ما اعتل من اخلاقه ، وتقويم ما اعوج من سيرته ، فركن الفتى اليه ، واستأمنه على اسراره ، وانتهى الامر بأن تردد نصر فى تنفيذ رغبة مولاه ، وأراد أن يستأنس برأى صديقه الكنانى ، فكان ماكان من ثورة اسامة على الشاب وتأنيبه ودعوته الى قتل الرجل الذى حرضه على القتل .

وادى تدخل اسامة فى المؤامرة الى تسطير صفحة مروعة فى تاريخ العهد الفاطمى بمصر . فقد انقلب نصر بن عباس الصنهاجى على الجالس على العرش بين عشية وضحاها ، فأفضى الى ابيه بما طلبه منه الظافر ، واتفق الاب والابن على اتقاء الخطر ـ فدعا نصر صديقه الظافر الى زيارته فى داره ، ووثب عليه عباس وابنه فاغتالاه غدرا ، ودفنا جثته فى سرداب عميق !

واسرع عباس الى القصر على رأس قوة من جنوده فداهم انصار الظافر ومعاونيه وذبحهم جميعا ، فتحولت القاعات والابهاء الى بركة من الدم ، وجاء الوزير القاتل بابن الظافر ـ وهو طفل فى الخامسة من العمر ـ فحمله على كتفه وأجلسه على العرش ، ونادى به ملكا باسم الفائز لنصر الله .

وكان ذلك فى سنة ٥٤٩ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٥٤ للميلاد .

***

ظن الوزير عباس الصنهاجى ان المأساة قد انتهت عند هذا الحد ، وان الامور قد استتبت والسلطة قد آلت اليه وانه سينفرد بحكم مصر ويصنع بالخليفة الصغير الضعيف مايشاء . ولم يفطن الى أن النساء قد عزمن على الانتقام منه ، بعد أن قضى على الرجال المقربين الى الخليفة المقتول .

فقد أثار مصرع الظافر على تلك الصورة البشعة نقمة زوجاته واخواته وجواريه ، فتنادين وتبادلن الرأى ، وتزعمت المؤامرة اخوات الظافر الاربع ، فقصصن شعورهن وجعلنها ضفائر مجدولة ، وأرسلنها الى صديق الخليفة الميت ونائبه فى منية ابن خصيب والاشمونين ، الصالح طلائع بن رزيك ـ ودعونه الى الأخذ بثأر الخليفة من قاتليه .

وكان الصالح طلائع ، وهو من اصل ارمنى ، قائدا شجاعا وسياسيا محنكا ، وكان له نفوذ كبير على الجيش ، فزحف بقوة من الحرس الاسود على القاهرة ، وثار من فى القصر ايضا عندما بلغهم قدوم النجدة من الوجه القبلى ، وحاول عباس الصنهاجى واتباعه أن يدافعوا عن

العاصمة . ولكنهم ادركوا ان الدائرة دائرة عليهم لا محالة ، فقرر عباس الرحيل الى الشام بأسرته وأمواله . .

وتردد أسامة بن منقذ الكنانى فى قبول الذهاب معه ، وساور الوزير الشك فى أمر صديقه . وخشى أن ينقلب عليه بعد أن كان المحرض الاول على المؤامرة ، فأرغمه على الانضمام الى القافلة التى أعدها خارج الأسوار .

لكن الشعب داهم القافلة ونهبها ، ففر عباس مع من بقى من رجاله وفيا له ، ومنهم أسامة الوفى بالرغم منه .

وابتعدت تلك الشرذمة الصغيرة عن العاصمة المصرية فى صيف سنة ٥٤٩ للهجرة ، أى بعد بضعة أسابيع من الانقلاب الاول ، الذى راح ضحيته الظافر بأمر الله .

واتجه عباس الصنهاجى وابنه نصر وأسامة الكنانى ورفاقهم القليلون الى صحراء سينا فبلاد الاردن على أمل الوصول الى دمشق . ولكن قوة من الفرسان الصليبيين داهمتهم فى الطريق ، فقتل منهم من قتل ، وأسر من أسر ، وكان عباس بين القتلى ، ونصر بين الأسرى .أما أسامة بن منقذ ، فقد نجا بنفسه ، وانطلق الى وادى موسى ، ثم صعد الى دمشق فبلغها بعد شهر من رحيله عن مصر !

وكان الصالح طلائع بن رزيك قد دخل القاهرة من جميع ابوابها منصورا بلا قتال ، على رأس جيشه المؤلف من فرسان سود ، يرتدون جميعا ملابس سوداء ، وتخفق على رءوسهم اعلام سوداء ، وقد حمل بعضهم رماحا علقت فى أسفلها ضفائر الشعر الاسود التى ارسلتها اخوات الظافر الى ابن رزيك مستنجدات مستثيرات .

***

حل الصالح طلائع بن رزيك فى دست الوزارة محل عباس الصنهاجى فراح يطارد شركاء سلفه فى التآمر على صاحب العرش وقتله . وأوفد من يبحث عن نصر بن عباس ، الفتى الخليع الذى كان سببا لتلك الفاجعة الدموية ، فقيل له انه أسير عند الافرنج ، وانه جحد بدينه بعد أن جحد بولى نعمته ، فاعتنق المسيحية ليضمن لنفسه حماية آسريه .

ولكن ابن رزيك كان يتوق الى انزال العقاب به ، فعرض على « فرسان الهيكل » الصليبيين الذين كانوا يحتفظون بنصر فى احدى قلاعهم أن يسلموه للخليفة الفائز مقابل ستين الف دينار . فسال لعاب

الفرسان لهذا العرض السخى . وباعوا الشاب بتلك الغدية التى أخذها الصالح طلائع من الاموال المكدسة فى دار الفتى الهارب بمصر .

وجىء بنصر بن عباس الى القاهرة ، محبوسا فى قفص من حديد. فسلمه الوزير الى نساء الظافر واخواته . فانهلن عليه ضربا بالنعال والقباقيب ، حتى تهشم جسمه وقضى نحبه فى عذاب أليم . ثم علقت جثته على صليب نصبه الحرس الاسود عند باب زويلة بالقاهرة .

وأبت نساء القصر الا أن يذهبن الى المكان الذى صلب فيه الشاب ليمتعن النظر برؤيته على تلك الحالة ، وقد ارتدين ثيابا سوداء ، ورفعن الاعلام السوداء ، وحملن الرماح التى شدت الى رءوسها شعورهن السوداء .

شجرة الدّر والشاعِر الغريب

مات على باب قصر الملكة ، والقيثارة بيده !

كان «جان دى بوليو» جنديا فى جيش لويس التاسع ملك فرنسا ولكنه لم يلتحق بالجيش لخوض غمار الحروب وقطع الرقاب بل لاثارة حماسة المقاتلين بانغامه المشجية ، واشعاره الرقيقة .

فجان دى بوليو شاعر قبل كل شيء . بل شاعر فقط . يعزف على القيثارة وينشد قصائده الحماسية او الغرامية او الدينية . وما التحق بالجيش الصليبى الا وفاء لنذر قطعه على نفسه ، وتحقيقا لامنية افضت بها اليه امه التقية الورعة فى المنام !

كان ذلك الشاب النبيل خاطبا فماتت خطيبته الجميلة قبل أن يقترن بها . وحزن عليها حزنا شديدا اوشك ان يذهب بعقله وكانت امه قد ماتت وهو فى ميعة الصبا . ولم يعرف اباه لان ذلك الشريف الشجاع لقى حتفه ايضا فى الحروب وابنه طفل فى المهد ، فعزم جان دى بوليو ، بعد أن حلت به تلك المصائب المتتابعة ، أن يعتزل الدنيا ويقضى حياته فى دير بعيدا عن الناس ..

غير أن امه ظهرت له فى المنام وقالت : « اى بنى . انك لمخطىء فى استسلامك للاحزان واليأس . انهض فى الحال واذهب الى الملك لويس فهو يعد العدة لحرب صليبية جديدة ، وكان ابوك رحمه الله يعلل النفس بأمنية لم تتحقق ، وهى زيارة قبر السيد المسيح فى الارض المقدسة ، تلك كانت ايضا أمنية والدتك التى تحبك وتصلى من أجلك فى العالم الآخر ، فحقق انت تلك الامنية المزدوجة التى حال الموت بينها وبين ابيك وامك ! »

فنهض الشاب من فراشه ، وأسرع الى قصر الملك طالبا السماح له بالالتحاق بجيشه ، وكان الملك يعرف اباه ويعلم أن الشاب شاعر وموسيقى فالحقه بجيشه على أن يطرب الجنود بأشعاره والحانه دون أن يخوض معهم غمار المعارك والسيف بيده !

***

فى سنة ١٢٤٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦٤٧ للهجرة ــ حمل البحر من الغرب الى الشرق جيوش الحرب الصليبية السابعة بقيادة

الملك لويس التاسع ، وبعد أن استولى الافرنج على قبرص والسواحل السورية اقلعت سفنهم الى دمياط فوقعت فى قبضتهم فى شهر صفر.

وكان الملك نجم الدين صالح أيوب بعيدا عن مصر فى ذلك الوقت، يحاصر مدينة حمص فى سورية ، فاسرع فى العودة عندما بلغه خبر سقوط دمياط ، لكنه مات فى شهر شعبان سنة ٦٤٧ هجرية قبل أن يتمكن من استرجاع المدينة ، وخشيت زوجته شجرة الدر أن تدب الفوضى فى صفوف الجنود اذا مابلغهم خبر وفاة الملك فكتمته عنهم ، وبعثت فى طلب ابنه تورانشاه من أرض الشام ، واشاعت بين الامراء ان الملك مريض وانه عهد فى قيادة جنده الى الامير فخر الدين ، فاقسموا له يمين الطاعة وجعلت شجرة الدر تصدر الاوامر ممهورة بتوقيع زوجها الميت ، يقلده عبدها « سهيل » البارع فى التزوير ، وبقيت الاحوال سائرة على هذا المنوال الى أن وصل تورانشاه من الشام ، فاذيع حين ذاك خبر وفاة الملك نجم الدين وبايع الامراء ابنه الملك المعظم تورانشاه.

وتمكن فريق من الافرنج من دخول «المنصورة» ولكن المصريين اغلقوا ابوابها واطبقوا عليهم وافنوهم او اسروهم فى داخل المدينة . وقتل الامير فخر الدين فى احدى المعارك . ثم جمع تورانشاه جموعه من جديد واشتبك الفريقان فى شهر محرم سنة ٦٤٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٥٠ للميلاد فى معركة «فارسكور» فدارت الدائرة على ملك فرنسا وجيشه ــ وكانت الهزيمة تامة شاملة ، فوقع الملك اسيرا مع كل رجاله وقواده وعرفت المعركة بمعركة «المنصورة» .

***

قتل الملك تورانشاه بعد ذلك الحادث التاريخى باربعة اسابيع، والتف الشعب حول شجرة الدر زوجة أبيه ، ونادوا بها ملكة على مصر والشام .

وافتدى ملك فرنسا نفسه من الاسر مقابل فدية بلغت الف الف دينار ، فأطلقت الملكة سراحه وأقلعت به السفينة من دمياط الى سواحل لبنان .

اما شجرة الدر ، فقد جلست على العرش واتخذت الامير عزالدين أيبك وزيرا لها .

وكان «جان دى بوليو» الشاعر الصليبى ، بين الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المصريين فى فارسكور . فساقوه الى القاهرة مع غيره من اسرى الافرنج الذين لم يفتدوا انفسهم بالمال . ورأى الشاب أن النذر الذى التحق بالجيش من أجل الوفاء به لن يتم مادام هو أسيرا

عند المصريين . فكيف السبيل الى التوفيق بين نذره والحالة التى هو فيهـا ؟

وكان قد سمع بقصة شجرة الدر ، وكيف ان تلك المراة تحكم بلادا اتفق الرجال فيها على أن يلقوا مقاليدها بين يدى زوجة الملك ، فعزم على طلب مقابلتها ، والافضاء اليها بقصته ، والاستئذان منهـا بالذهاب الى الارض المقدسة لأداء فريضة الحج . .

أصغت الملكة اليه ، وبعد ما انتهى الشاب من بسط أمـره قالت بلهجة حازمة ممزوجة بكثير من اللطف :

ـ انت اسير فى قبضتنا باهذا وماترغب فيـه لايتفق مع قوانين الحرب التى نحن سائرون عليها . واذا وقع اسير منا فى ايديكم فهـل كنتم تسمحون له بما تطلب منى ان اسمح لك به ؟

فأجابها الشاب :

ـ كلا أيتها الملكة !

وبعد سكوت رفعت رأسها وقالت :

ـ ليكن . فاننى أجيبك الى رغبتك . ولكننى احذرك من ان تنكث بعهدك . فاننى انتقم لنفسى من غيرك من الاسرى الذين لايزالون فى ديارنا اذهب !

فتناول الشـــاب طرف ردائها وقبله وانصرف ومعه وثيقـــة تفتح له الطريق حرا الى الارض المقدسة ، الى قبر السيد المسيح !

***

وفى أثناء غياب الشاب الفرنسى فى طريقه الى بيت المقدس وعودته منه ، تطورت الاحوال فى مصر تطورا لم يكن فى مصلحة شجرة الدر ؛ فقد رفض الخليفة المستنصر بالله الاعتراف بها ملكة على مصر ، قائلا ان بين أمراء البلاد رجالا هم أولى بالجلوس على العرش دون النساء . فعقد أمراء المملكة جلسة للمشاورة ، وقرروا بالاتفاق مع شجرة الدر ان يعقد لها على الامير عز الدين أيبك ، حتى اذا ماأصبح الوزير زوجها، شاركته فى الملك وأجلسته بجانبها على العرش !

وهذا ماحدث . .

غير ان الملكة ادركت بعد أسابيع من زواجها ان عـز الدين ايبك لايحبها ، وانه يفاوض ملك الموصل لاتخاذ ابنته زوجة له ، لكى تحـل محل شجرة الدر فى قلبه وعلى سرير الملك .

فتآمرت مع الامراء على قتله ، ونجحت المؤامرة فسقط عزالدين ايبك تحت خناجر المتآمرين وبقيت شجرة الدر وحدها صاحبة الامر والنهى فى المملكة دون أن تحسب حسابا لابن زوجها القتيل نور الدين على وأمه الجارية التى تكره شجرة الدر كرها شديدا وتحقد عليها . فقوبلت مؤامرة الملكة بمؤامرة مثلها ، وقتلتها النساء ضربا بالقباقيب ، وشوهن جثتها تشويها بشعا . وبذلك انتهت حياة تلك المراة الجميلة الساحرة !

***

عاد جان دى بوليو ، الشاعر الفرنسى ، من الارض المقدسة بعد أن قام بوفاء نذره .

ولكنه وصل الى القاهرة فى اليوم الذى قتلت فيه شجرة الدر . فاستولى عليه حزن شديد ، وانتابه اليأس وآلمه وخز الضمير .

فقد اعتقد الشاب ، أن الملكة ماتت وهى معتقدة أنه أخلف بوعده وخان عهده ، وانه فر من الاسر وطلب النجاة بحجة أنه يريد زيارة البيت المقدس وفاء لنذر عزيز !

وفى الاسبوع التالى لمصرع شجرة الدر ، وجد حراس القصر ، تحت الاسوار وعلى مقربة من الباب ، جثة شاب غريب ملقاة على الحصى ..

كان الميت يضم الى صدره قيثارة ، وبين أصابعه رقا فيه كلام لم يفهمه القوم . فحملوا الخبر الى القصر ، وعهد نور الدين على الى أحد الاسرى الافرنج فى ترجمة الكلمات المكتوبة على ذلك الرق ، فاذا بها أشعار بلغة الافرنج ، يقول فيها كاتبها :

« سمحت لى بالذهاب الى الارض المقدسة .

« فزرت قبر المخلص السيد المسيح .

« ووفيت نذر أبى وأمى .

« ولكننى لم أتمكن من الوفاء بالعهد .

« فقد ماتت التى أحسنت الى .

« قبل أن أرفع اليها آيات الشكر .

« وأثبت لها صدقى .

« وسوف أفعل ذلك فى العالم الآخر .

« حيث تلتقى أرواح الابرار ! » .

لم يفهم القوم معنى لهذه الكلمات . ولكن احدى نساء القصر ، وهى من المقربات لشجرة الدر ، كانت على علم بأمر ذلك الشاب فقصت على نور الدين قصته . وعلم أهل القصر منها أن الشاعر جان دى بوليو يشير فى قصيدته الى العهد الذى قطعه على نفسه لشجرة الدر .

ولم يجدوا فى جسم القتيل أثرا لجرح أو لسم . فقدروا أنه مات من الحزن والاسى ، لان الاقدار أبت الا أن تجعله حانثا باليمين !

بنُور التَّريَّة

لاتهزءوا بنبوءات العرافين ، فان بعضها يتحقق ..
وقد يكون الفضل للمصادفة فقط ، لا لقــدرة
العرافين على استطلاع ما يخبئه الغيب !

فى مطلع القرن الثامن للهجرة تفاقم الخطر على مصر ، واشتد ضغط التتر على حدودها ، وتدفقت جيوشهم بقيادة غازان خان صاحب فارس ، على الاقاليم الشامية الخاضعة لدولة المماليك فى مصر ، وعبثا حاول الولاة والامراء صد ذلك التيار بمساعدة الجيوش المصرية ، فقد احرز غازان انتصارا رائعا على قوات المماليك وحلفائهم فى « حمص » سنة ٧٠٠ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٣٠٠ للميلاد ، ولو لم تصمد له حامية «دمشق» المصرية لواصل الفاتح التترى زحفه واجتاح صحراء سيناء وهاجم المماليك فى عقر دارهم ..

وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون الجالس على عرش الدولة المصرية ، يواجه فى آن واحد صعابا فى الداخل وحروبا فى الخارج . ولكنه فى ذلك الظرف العصيب نسى أحقاده وخصوماته ، ودعا اصدقاءه واعداءه من أقطاب البلاد على السواء ، وبسط لهم الحالة وقال ان مصر فى خطر يهدد كيانها ، ولو غزاها التتر لاصبح المماليك جميعا والشعب المصرى بأسره عبيدا ارقاء لأولئك الأجلاف القساة ..

وتوحدت البلاد واجتمعت الكلمة وعقدت الخناصر فى كتلة متراصة متماسكة ، بقيادة الملك الناصر ، فمشى على راس جيش لجب للقاء العدو الزاحف ، واشتبك الفريقان فى معركة رهيبة بالقرب من دمشق ، فى مكان يدعى «عين الصفر » وذلك فى سنة ٧٠٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٣٠٣ للميلاد فكان النصر فى هذه المرة حليف الجيوش المصرية ..

مزق الملك الناصر وخلفاؤه من الامراء السوريين جيشا قوامه مائة الف تترى فقتل منهم خلق لايحصى ، ووقع فى الاسر عشرة آلاف مقاتل ، واستولى المصريون على عشرين الف راس من الماشية ، وآلاف من الخيول وأكداس من الاسلحة . وعادوا الى بلادهم فاستقبلوا فيها استقبال الغزاة الفاتحين وكسرت شوكة التتر منذ ذلك الوقت ولم تقم لهم قائمة مدة قرن بكامله . ومات غازان خان غيظا وكمدا .

***

بعد معركة مرج الصفر ، وفرار البقية الباقية من جيش التتر فى السهول والآكام ، لم يفكر المصريون فى اخذ قسطهم من الراحـة ، بل انتشروا فى ميدان المعركة والمنافذ المتشعبة منه يلتقطون الأسرى ويجمعون الأسلاب ، وفى سفح أكمة تكسوها الرياحين ، عثر الجندى «احمد النبال» على امرأة تضم الى صدرها طفلة فى الخامسة أو السادسـة من العمر ، ترتعش من الخوف والحمى ، والمرأة تجالد نفسها وتواسى الطفلة بعبارات أفرغت فيها حدب الام وحنانها • ودهش الجندى لهذا المنظر غير المألوف فى ميادين القتال ، ولكن المرأة رفعت اليه عينيها الدامعتين وقد تجـلى فيهما الذعر واليأس ، وبادرته قائلة :

ـ ايا كنت ايها البطل المقدام ، وايا كان القوم الذين تنتمى اليهم ، ان الله هو الذى ساقك الى فى هذه الساعة الرهيبة التى توشك فيهـا الروح ان تفـارقنى اسمع ماأقوله لك ، واقسم انك سـتنفذ ارادتى الاخيرة !

وقف الجندى أمام المرأة وتمتم قائلا بدون أن يفـكر طـويلا فى الامر :

ـ أقسم لك ايتها الغريبة بأن أصنع ماتطلبين منى ، ان كان ذلك فى وسعى ... فتكلمى :

واستطردت المرأة تقول :

ـ اسمى «نورخاتون» زوجة الامير برهان الاصفهانى من عظماء فارس ومن القواد الذين التحقوا بجيش التتر هذا الذى هزم فى معركة اليوم . وهذه ابنتى ووحيدتى ، واسمها ايضا مثلى «نور» وقد جئنـا الى هنا لان زوجى يرغمنا على السير معه فى ايام السلم وايام الحرب على السواء ، مدفوعا بغيرة شديدة تجعله غير قادر على احتمال فراقى يوما واحدا . ويظنه الناس مجنونا ، ولكنه ليس أكثر من رجل غيور الى حد يقرب من الجنون !. وقد قتل برهان الاصفهانى اليوم فمات ميتة الابطال . أما انا فقد رفسنى حصان جامح فأصاب منى مقتلا ، واشعر بأننى لن ارى فجر الغد .. فقل لى .. أمصرى انت ؟

ـ نعم ، واسمى أحمد النبال ، من الرماة فى جيش الملك النـاصر محمد بن قلاوون !

ـ ليحفظك الله .. خذ اذن هذه الطفلة الضعيفة التى أصبحت منذ هذه اللحظة يتيمة لامعين لها فى هذه الدنيا .. وخـذ معها كيس النقود هذا وفيه مقدار من الذهب ... وهذا الصندوق الصغير بحجمه الثمين بما يحويه ... ووصيتى اليك ان تعنى بالطفلة وتتبناها ، وأن

تنفق النقود الذهبية ... بدون أن تمس الصندوق الذى يجب أن تفتحه أمام صاحبته الصغيرة هذه عندما تبلغ الخامسة عشرة من العمر ... ولها أن تتصرف بما فيه كما تشاء ..

قالت المرأة هذا ، وأنهكها المجهود الذى بذلته للافضاء الى الجندى المصرى برغبتها الاخيرة ، فخانتها قواها ومال رأسها الى الخلف ؛ ولما تقدم أحمد النبال لمحاولة اسعافها ، لم تلمس يداه غير جثة هامدة ؛ ولم يطرق أذنيه غير زفرات طفلة يتيمة القت بنفسها على أمها الميتة باكية منتحبة !

ولم يكن الجندى الشجاع يتصور ، قبل بدء المعركة ، انه سيخرج منها وبين يديه طفلة تبناها ، وكيس من الذهب ، وصندوق مغلق لايعرف مانضمه جوانبه !..

***

فى يوم بهيج من ايام سنة ٧٢٠ ـ الموافقة لسنة ١٣٢٠ للميلاد ـ غمر الفرح مصر بأسرها ، وأقيمت الزينات فى المدن والدساكر والمزارع . واغدق الاغنياء الاموال على الفقراء ، وذبحت الذبائح ووزعت لحومها على المعوزين . وخرجت كتائب الجيش من ثكناتها وطافت فى عرض رائع قابله الشعب بالتهليل والتكبير . ودعا الناس بالسعادة وطول العمر للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذى عم الرغد البلاد فى عهده ، وخيم الامن على ربوعها ، وراجت التجارة ، وازدهرت الصناعة والزراعة ، وانفقت الاموال بسخاء فى المشروعات العامة ، وانشئت المدارس وشيدت المساجد ، وبلغ الجيش ، حامى الحمى وحارس الوطن ، مرتبة من المناعة والقوة قلما عرفها من قبل . فأية غرابة اذن فى أن تفرح مصر وتبتهج ، فى ذلك اليوم السعيد الذى احتفل فيه الملك الناصر بزواجه من امرأة جديدة ، هى « طلبية خاتون » ابنة الامير ازبك خان التترى ، خصوصا وان ذلك الزواج كان يرمى أيضا الى هدف سياسى ، هو توثيق الروابط بين مصر وأولئك التتر الذين أمنت شرهم بالمصاهرة بعد أن كسرت شوكتهم أولا فى ميادين القتال .

فى ذلك اليوم ، كانت مدينة « التحريرية » من أعمال مصر الغربية فى هرج ومرج . ففى تلك المدينة كان يعيش مائة وعشرون من قدماء المحاربين ، هم البقية الباقية من ثلاثمائة فارس من ابناء المدينة ، خرجوا الى مقاتلة التتر تحت لواء الملك الناصر فى سنة ٧٠٣ للهجرة ، واشتركوا فى معركة « مرج الصفر » بأرض الشام ، وعاد منهم الى

مسقط راســهم التحريرية مائة وخمســون فقط ، ثم لقى فريق منهم حتفهم فى ظروف ومناســبات ، وبقى أولئك الابطال المائة والعشرون رمزا لما ابدته المدينــة العــامرة من سخاء فى اداء ضريبة الدم للوطن المصرى فى ساعات الهول والشدة .

وكان بين اولئك الابطال واحــد يحفظ من تلك المعــركة ذكريات خاصة : ذلك هو الجندى « احمد النبال » الذى عــاد من « مرج الصفر » بطفلة يتيمة وكيس من الذهب وصندوق مختوم . فهو الآن يعيش فى بلدته « التحريرية » عيشــة سعيدة هنيئة ، وتعيش معــه زوجته وبناته ، وتلك الطفلة التى اصبحت امــرأة شــابة فى الثانية والعشرين من العمر ، عليها مسحة من الجمال الشرقى الرائع ، وعلى محياها دلائل النبل وكرم المحتد . وقد فتح الصندوق المقفل عندما بلغت « نور » الخامســة عشرة من عمرها ، فاذا به يضم بين جوانبــه كمية من الحلى والجواهر والحجارة الكريمة ، مما يجعل الفتاةاليتيمة على جانب عظيم من الثراء ..

وارادت « نور » التترية ان تعبر عن وفائها للرجل الذى انقــذ حياتها وتبناها ، وللبلدة التى عاشت فيها منذ ان اصبحت مصر وطنا لها ، فوزعت جزءا من تلك الثروة على المحتاجين من السكان ، وخصت اسرتها الجديدةبمال وفير واجرت معاشا لكل واحد من ابطالالتحريرية الذين اشتركوا فى معــركة مرج الصفر ، التى ماتت فيها امها لاحقــة بأبيها بعد ان تركتها وديعة بين يدى احمد النبال . وهكذا عاش اولئك الابطال فى طمأنينة ورخاء ، بفضل ما ابدته نحوهم الاميرة التتريةالوفية من كرم وعرفان جميل . اما الجنــدى الذى تبناها ، فقد اعطته من ثروتها ما يكفى لانشــاء مصنع للاسلحة ، وعلى الخصــوص للاقواس والسهام ، وهكذا اصبح احمد التحريرى يحمل اسما مزدوج المعنى ، وصار « النبال » يصنع النبال ويجيد رشقها على السواء !

فلا غرابة اذن فى ان تكون بلدة التحريرية سباقة الى التعبير عن فرحها وان ترتدى ثوب البهجة والحبور ، فى ذلك اليوم الذى احتفــل فيه الملك الناصر بزواجه من الاميرة التترية ، فقد عاودت ابطال مرج الصفر ذكريات الماضى ، واعدوا فى السهول الممتدة حول بلدتهم مهرجانا دعوا سكان التحريرية والقرى المجاورة الى الاشــتراك فيه ، وحولوا السهول الى ميدان لسباق الفرسان ومباراة المصــارعين والضــاربين بالسيف وراشقىالنبال والسهام ، وظلّ حاملوا المشاعل يطوفون بهــا طول الليل حتى ادركهم فجر اليوم التالى وهم على حالهم من مرحبرىء وانصراف عن هموم الدنيا ومتاعبها !

وابى سكان النحريرية الا ان يشاركهم فى مهرجانهم أمير الناحية، شمس الدين سنقر السعدى ، نقيب الجيوش المصرية فى ذلك العهد، وصاحب الفضل الاكبر واليد الطولى فيما بلغته البلدة وما يتبعها من قرى ومزارع وحقول ، من تقدم وعمار وازدهار . فهو الذى وضع اسس حكرها وخراجها ، ووسع اسواقها وشيد فيها الجوامع والمدارس والفنادق وغرس حولها الحدائق والبساتين ، وجر اليها الماء وشجع فيها التجار والصناع. وهو الذى عنى بتغذية الروح العسكرية فى نفوس ابنائها ، مما حملهم على الاشتغال فى صناعة الاسلحة والاقبال على الانخراط فى سلك الجيش والعناية بتربية الخيول . وقد عرف له السكان فضله واياديه البيضاء ، فأحبوه واخلصوا له . ولهذا فانهم ابوا الا أن يشاهد مهرجانهم ذلك الذى اقاموه بمناسبة زواج السلطان. ولم يرفض شمس الدين اجابتهم الى رجائهم بل غادر الاسكندرية حيث كان يقيم ، وذهب الى النحريرية حيث اختلط بالناس وشاركهم أفراحهم .

كان شمس الدين سنقر يعرف الفتاة التترية « نور » ولا يجهل قصتها . وكان على علم بما تصنعه من خير فى البلدة التى استقرت فيها، وما تجريه من ارزاق على ابطال مرج الصفر ، وما تنفقه من مال فى الترفيه عن المساكين واعانة المعوزين . ولكنه لم يكن قد شعر تجاهها، حتى ذلك اليوم ، بغير ما يشعر به الكريم من احترام وتقدير تجاه كريم مثله يصنع الخير ويتجنب الشر . غير ان المهرجان الذى اقيم فى سنة ٧٢. كان مقدرا له أن يترك فى حياة شمس الدين اثرا لم يكن الرجل ليحسب له من قبل حسابا ..

خرجت « نور » فى موكب يتقدمه هودجها لتحية الامير القادم الى البلدة والترحيب به ، وكانت فى حلة تترية مزركشة بالفضة والقصب، وقد ارخت خمارها ولفته حول وجهها ، وبرقت من خلال ثناياه عيناها السوداوان ، فكانت نظراتها فى تلك المقابلة كافية لبعث الاضطراب فى نفس شمس الدين . فقد رشقته العينان الساحرتان بنبال اشد فتكا من نبال النحريرية ، لانها نفذت الى اعماق صدره وتركته صريع الهوى .. وما اشرف المهرجان على نهايته ، وما طلع فجر الغد ، حتى كان شمس الدين سنقر السعدى قد تقدم الى الفتاة التترية يعرض عليها ان تكون له زوجة حليلة ، وان تشاركه اسمه ومقامه ومكانته ..

وفى بيت احمد النبال ، وبحضور افراد الاسرة واعيان البلدة واكبر الرجال سنا من ابطال مرج الصفر ، تم الزواج الذى أراده نقيب الجيش فكان له ما اراد بين يوم وغد ..

حدد شمس الدين يوما للرحيل عن النحريرية والعودة الى الاسكندرية . واذا بنور التترية يتولاها الجزع فجأة فتدعو الجندى السابق الذى تبناها ، وزوجته وبناته ، والرجل الذى اختارها زوجة له ، الى مجلس ضمهم جميعا فى بيت أحمد النبال ، وتفضى اليهم بما قالت انه سر حفظته مكتوما فى صدرها وقد جاء الوقت لكى تبوح به . . .

وقالت المراة وهى تشير الى رق طوته بين أصابعها ، وكان صوتها يرتجف ووجهها يعلوه الشحوب :

ــ ان اسرتى هذه تعلم ان كثيرين من شبان هذه البلدة ، ومن ابناء الامراء فى مصر ، قد تقدموا عارضين على الزواج واننى كنت دائما ارفض مجرد التفكير فى الامر ، قائلة اننى وقفت حياتى وثروتى على اعمال البر والخير . . واسرتى هذه تعلم ايضا اننى كنت دائما ارفض الخروج من البلدة ، واننى لم اعرف من الارض المصرية حتى الآن غير هذه الناحية وما يكتنفها من حقول . . وما فعلت ذلك وما وقفت ذلك الموقف ، وسلكت ذلك السلوك ، الا لاننى كنت اوجس خيفة من الزواج ، ومن الابتعاد عن هذه البلدة التى احببتها واحببت اهلها ، فبادلونى حبا بحب ووفاء بوفاء . . اما سبب مخاوفى ، فهو مدون فى هذا الرق ، باللغة التركية ، وقد عثرت عليه مطويا بين محتويات الصندوق المغلق ، الذى فتحه أحمد النبال يوم بلوغى الخامسة عشرة من سنى حياتى اى منذ سبعة اعوام . . لقد قرأنا هذا الرق فى ذلك الوقت ، ولم نأبه بما جاء فيه ، ونسيتموه جميعا ، ولكننى انا ظللت اذكره واحتفظ به . والتتر قوم يؤمنون باقوال العرافين والضاربين بالرمل والقارئين فى صفحة الغيب . . . وقد ورثت هذا الايمان عن قومى . . ولكننى شعرت بدافع خفى يدفعنى الى قبول ما عرضه على الامير شمس الدين سنقر ، فرضيت بأن أصبح له زوجة حليلة ، وان ارحل معه الى حيث يريد بالرغم مما فى هذا الرق من تحذير !.

قالت التترية هذا ودفعت بالرق الى شمس الدين ، فاخذه من يدها ، ونشره وهم بقراءته ، بينما كان أحمد النبال يتمتم قائلا :

ــ نعم . . نعم . . اذكر هذا . . ولكننى لا أعتقد أن فيه مايوجب القلق والاضطراب . .

وقرأ شمس الدين سنقر هذه العبارات المدونة فى الرق : « لاتربطى حياتك بحياة رجل . ولا تخرجى من مكان انت فيه بعد ان يتم القمر دورته الثمانين بعد المئة . واذا فعلت احد الامرين ، فالموت يترصدك ولن تستطيعى دفعه عنك . . . »

وتبادل الجميع النظرات ، وساد المكان سكوت رهيب ، فقالت نور :

ـ لقد خالفت الشطر الاول من هذا النذير ، وربطت حياتي بحياة رجل ، هو انت يا شمس الدين ...

فقاطعها السعدى قائلا ...

ـ ولكنني ارغب اليك فى الا تخالفي الشطر الثاني . وستبقين مقيمة هنا ، فى التحريرية ، واقيم انا معك بقدر ما تسمح لى الظروف من ايام السنة !

***

فظلت نور التترية اذن فى البلدة التى احبتها . وراحت تعاون زوجها ، امير الناحية ، فى تنمية ثروة التحريرية مما زاد سكانها رخاء على رخاء ، وهناء على هناء ..

ولكن الاقدار كانت تخبىء للمرأة الطيبة الخيرة مفاجأة أخرى : فقد عرف الملك الناصر محمد بن قلاوون بما بلغته البلدة وملحقاتها من ازدهار لم تبلغه ناحية سواها فى مصر كلها ، فرغب الى اميرها شمس الدين سنقر فى ان يتنازل له عنها ، مقابل الثمن الذى يريد ..

ولم يكن فى وسع شمس الدين ان يرد للسلطان طلبا . فاستجاب لرغبته وانتقلت التحريرية من يد اميرها الى يد الملك الناصر صاحب العرش .

وكان لا بد لشمس الدين من الرحيل نهائيا الى مقر آخر ، ومن اخذ زوجته المحبوبة معه ..

ووزعت نور التترية ما تبقى من ثروتها على ابطال مرج الصفر من ابناء البلدة وودعت الاسرة التى عاشت فى كنفها ، وخرجت للمرة الاولى من التحريرية منذ أن وطئتها قدماها وهى طفلة يتيمة .

وكان ذلك هو الوداع الاخير !

فقد غرقت نور زوجة شمس الدين سنقر فى النيل قبل ان تبلغ مقرها الجديد فى الاسكندرية ، وتحققت نبوءة العراف المدونة فى الرق .. وكان ذلك فى سنة ٧٢٧ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٣٢٧ الميلاد ..

وقبل مرور سنة على وفاة زوجته غرقا ، وافت المنية زوجها شمس الدين سنقر السعدى ..

وعرفت « التحريرية » فيما بعد باسم « النحارية » وهو الاسم الذى احتفظت به الى يومنا هذا

صباح

تزعمت قومها ، فزاحمت بأفعالها الرجال ،
وخلفتها نساء أخريات حملن اسمها ، وتزعمن
القوم مثلها !

في أوائل القرن العاشر للهجرة ، الموافق للقرن السادس عشر للميلاد ، كان السلاطين الشراكسة أو البرجية يحكمون مصر ، ويبسطون نفوذهم أيضا على الاقطار الشامية ، وقد امتد ملكهم ، في وقت من الاوقات، من ضفاف النيل الى جبال طوروس ، وظلوا في الحكم مائة وخمسا وثلاثين سنة ٠

وفي سنة ٩٠٦ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٥٠١ للميلاد ، قتل الملك العادل سيف الدين طومان باى الاول ، بعد أن تولى العرش خمسة شهور فقط ، وخلفه قانصوه الرابع ، ولقب بالملك الاشرف ، وكان في العقد السابع من العمر ٠

وهو الذي شيد الجامع المعروف بجامع الغوري ، وأطلق اسمه على احد احياء القاهرة المعروف بالغورية ٠

وكان بين القواد الذين أولاهم السلطان الغوري فيما بعد ثقته ، وعلق عليهم آماله في صد الغزاة عن حدود مملكته الشاسعة ، رجل عربي يدعى «هانيء» جاء من بادية الشام الى مصر ، واقسم يمين الطاعة للسلطان فولاه قيادة كوكبة من الفرسان ، فكان ذلك العربي الوحيد بين القواد الذي لا يمت الى المماليك بنسب ، والذي لم يخرج من البيئة التي خرجوا منها ٠

وكانت تعيش في قصر السلطان في ذلك الوقت ، بين السراري والجواري ، امرأة ساحرة العينين ، وضاحة الجبين ، ممتلئة الجسم ، أرسلها « خير بك » نائب حلب هدية الى مولاه ٠ وكانت تلك المرأة تتألم من الأسر ، وتحن الى الصحاري والقفار ، لانها عربية قادها رجال خير بك سبية ذليلة في احدى الغزوات ، فلم تطق صبرا على حياتها الجديدة ، وظلت تتحين الفرص للهرب من قصر السلطان ، والعودة اذا استطاعت الى باديتها وعشيرتها ٠

وكان هانيء العربي أحد رجال القصر الذين تمكنت تلك المرأة ــ واسمها صباح ــ من الاتصال بهم لتمهيد سبيل الفرار لها ــ وقد سطت على الشاب العربي بسحر عينيها ، وأثارت في صدره النعرة القومية ،

فغلت مراجل الدم البدوى فى عروقه ، وجعل يعد العدة لانقاذ المرأة من أسرها ، وترحيلها الى بلادها ، دون أن يشعر سيده بأنه يخون الأمانة ويستغل الثقة !

ونجح « هانىء » فى تنفيذ الخطة التى رسمها لانقاذ « صباح » • وفى سنة ١٥١٤ ميلادية ، الموافقة لسنة ٩١٩ هجرية ، كانت المرأة بعيدة عن القاهرة ، فى طريقها الى صحراء سيناء وجبال لبنان وسهول حمص وحماه — وبادية الشام مقر قبيلتها •

ولكن منقذها ندم على ما صنعت يداه ، وجاءت ندامته بعد فوات وقتها : ندم على ترحيل المرأة عن مصر ، لأنه شعر بعد رحيلها بعاطفة لم يكن قد أدرك معناها ومداها من قبل !

شعر هانىء بأنه يحب المرأة ، وأن حبه ليس وليد ساعة بل ربيب شهور ، ولكنه لم يفطن اليه الا بعد أن أصبحت الحبيبة بعيدة عن ديار يقيم الحبيب فيها !

فما العمل ؟

لم يبق أمام العاشق الا أن يلحق بتلك التى أثارت فى صدره غرامه العميق ، والتى أغضب فرارها الملك الاشرف فانتقم من العبيد والحرس الابرياء ، وقتل منهم أربعة بتهمة الاشتراك فى اخراج المرأة العربية من قصره •

ولم يدر قط فى خلد السلطان الغورى أن هانىء يدا فى فرار صباح ، فعهد اليه بالبحث عنها ، وطلب منه أن يلحق بها الى أرض الشام ، على أمل أن يعثر عليها فى الطريق ، ويعيدها ذليلة خاضعة الى القصر ، حيث ينزل بها السلطان الشيخ عقابا استحقته وعذابا أرادته لنفسها •

كان قانصوه الغورى فى ذلك الوقت قد بلغ نهاية العقد الثامن ولكنه ابى الاذعان لصوت العقل ، ولم يعترف للطبيعة بحقها على البشر ، وبأن امرأة فى مقتبل العمر ، جميلة قوية تجرى فى عروقها دماء نقية فتية ، تأنف البقاء فى كنف رجل أحنت السنون ظهره ، وأخمدت الشيخوخة بريق عينيه ، ودب الفتور الى جسمه المشرف على الفناء !

أصدر السلطان المتألم فى كبريائه أمره الى القائد العربى ، وزوده بالمال والرجال ، وأطلقه فى أثر المرأة الهاربة •

وهذا ما كان هانىء يرغب فيه ويتوق اليه !

***

كانت سنة ١٥١٦ للميلاد — الموافقة ٩٢٣ للهجرة — من السنين

التي دونت في صفحة التاريخ بأرقام من حديد ودم ونار ، وأقامت فاصلا بين عهد وعهد ، وبين عصر وعصر ، وبين ماض ومستقبل !

زحفت جيوش العثمانيين ، بقيادة السلطان سليم الاول ، على تخوم الشام. ووقفت في السهول والجبال ، ترقب الفرصة السانحة للانقضاض على الممالك والامارات الخاضعة لسلاطين مصر . ودارت مفاوضات بين السلطان العثماني الفاتح . والسلطان الاشرف قانصوه الغوري ، ظهر من مقدماتها أن الحرب واقعة لا محالة بين الفريقين ، وأن الميدان لا يتسع لمطامع الخصمين ، وأن لا بد من خضوع أحدهما للآخر .

وجعل الامراء والاقيال يتباحثون ويتشاورون ، وكل واحد منهم ينظر الى مصلحته ، ويفكر في الالتحاق بهذا أو بذاك من الجيشين ٠

فأين كان هانيء البدوي ، في حين كانت السيوف تشحذ للحرب ، والخيل تسرج للكر ، والكتائب تعبأ للزحف ؟

كان هانيء في ذلك الوقت ينشد أنشودة الغرام في بادية الشام ٠ فقد اهتدى الى مقر المرأة التي أحبها ، وعاد الى عشيرته ، وزفت اليه صباح ، وتحالفت العشيرتان على السراء والضراء !

وعندما ارتفع في سهول الشام صهيل الخيول ، ولمع في فضائها بريق الصوارم والرماح ، عقد شيوخ العشيرتين مجلسهم ، وتشاوروا فيما بينهم ، وكان راى الاغلبية ان يلتحق القادرون على الحرب بجيش السلطان العثماني الغازي ، وأن يفتكوا بأنصار المماليك في المعاقل والحصون التي يعتصمون فيها ...

فعارضهم هانيء في هذا الرأي ، والتمس منهم مهلة محدودة . للذهاب الى السلطان الغوري ، والوقوف على مبلغ قوته ، والاتفاق معه على شروط قد يكون فيها الخير للعشيرتين ، والضمان لابناء الصحراء في مستقبل الايام ٠٠٠

وغادر هانيء مرابع الحي على ان يعود عندما يتم القمر دورته !

***

دار القمر دورته الاولى ٠٠٠

ثم دار دورته الثانية ، وهانيء لم يرجع الى الحي تنفيذا لوعده ٠٠٠

عقد الشيوخ مجلسهم مرة أخرى ، ووقفت بينهم صباح ، وقد حلت شعرها وعفرت وجهها بالتراب ، وصاحت قائلة :

ـ لقد بطش الملك الاشرف قانصوه الغوري بهانيء ابنكم وزوج

ابنتكم • لقد غدر ذلك الثعلب الهرم بنيث البيداء • فاغسلوا الدم بالدم ان كنتم رجالا ! أسرعوا الى ملاقاة أولئك المماليك ، وسأنطلق فى مقدمتكم ساعية الى الثأر والانتقام !

وفى اليوم التالى ، كان فرسان العشيرتين ينهبون بخيولهم الارض نهبا ، فى طريقهم الى حلب !

أما هانىء فانه كان منطلقا من جهته الى حلب أيضا ، ولكن فى صفوف المماليك !•

فقد التقى بسيده ومولاه ، وأعجب بشجاعة ذلك الشيخ الوقور ، الذى لم يتردد فى السير أمام جيشه ، حاملا على منكبيه عبء ثمانين عاما ، مكللا بشعوره البيضاء وبيده سيف مسلول أعده لمقارعة الابطال فى الميادين ، دفاعا عن ملكه وذودا عن حياضه !

وقع نظر الملك الاشرف قانصوه الغورى على القائد العربى ، فحياه قائلا ، قبل أن يفوه هانىء بكلمة :

ـ مرحى ، مرحى ! كنت واثقا انك لن تتخلف عن المجىء يا هانىء • خذ مكانك بين الأوفياء من رجالى ، واطربنا بصليل سيفك فى حومات الوغى !

فسار هانىء الى القتال مع السائرين اليه • ونسى أن هناك زوجة يطير فؤادها شعاعا عليه ، ورجالا ينتظرون عودته لتقرير خطتهم فى ذلك الصراع الرهيب •••

***

وقع الصدام المنتظر فى الرابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٥١٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٢١ هجرية ـ فى « مرج دابق » على مقربة من حلب •••

سهل شاءت الاقدار أن يحفر اسمه بأطراف الاسنة على جبهة الدهر!

فى ذلك السهل التقى الجيشان • وفى ذلك السهل التحم الابطال !

وفى ذلك السهل لعبت الخيانة دورها ، فغدر اثنان من الامراء بالملك الاشرف، وهما خير بك والغزالى بك، وانضما برجالهما الى جيش السلطان العثمانى فى خلال المعركة • وكانت خيانتهما نذيرا بانهزام المماليك ، ورجحت بسببها كفة العثمانيين !

صمد قانصوه ورجاله واستبسلوا فى الدفاع • وعندما أدرك السلطان الشيخ أن الدائرة ستدور عليه ، همز جواده ، وصاح فى حاشيته صيحة

دوت كهزيم الرعد ، واخترق الصفوف ضاربا بسيفه يمينا ويسارا ، مجندلا من الفرسان عشرات وعشرات ...

ولم يعد الى رجاله ...

ولم يقع عليه النظر بعد تلك الساعة الرهيبة ...

ولم يعثر أحد على جثته في الميدان !

فان الملك الاشرف قانصوه الغورى ، قد مات موت الابطال الأباة، في ساحة الشرف !

***

مما يذكر عن معركة مرج دابق، أن السلطان العثماني استخدم فيها المدفعية ضد المماليك الذين كانوا يعلنون احتقارهم لهذا السلاح الذى يقتل من بعيد ، والذى يحول دون وقوف الفرسان والمشاة وجها لوجه، في حومة الوغى !

وكما كان الفضل الاول في سقوط القسطنطينية واقتحام اسوارها لمدفعية السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣ ، كذلك كان الفضل الاول في انتصار العثمانيين في معركة مرج دابق لمدفعية السلطان سليم الاول

***

ـ على به ! على به ! الخائن يقتل !

صيحات أرسلتها حناجر العربان ، عندما جيء اليهم بالقائد هانيء البدوى ، موثق اليدين ، والدم يسيل من جرح في كتفه !

فقد رآه بنو قومه بين صفوف المماليك ، يتقدم الفرسان ويستحثهم على القتال . فاعتقد العربان أن الرجل خانهم ، وانه ابى الا أن يحاربهم ويقاتلهم !

وعندما أصيب الفارس الشجاع بجرح في كتفه ، وسقط عن جواده ، احاط به أبناء عشيرته ، وأوثقوه وقادوه الى شيوخهم ...

وكانت « صباح » بين أولئك الشيوخ . وما وقع نظرها على زوجها حتى صاحت به قائلة :

ـ لقد خنت السلطان بالامس مرآجلي . وخنتني اليوم من أجل السلطان . ووقعت في قبضة رجالنا اسير حرب وأنت تقاتل في صفوف الاعداء ، بعد ان خنت القبيلة واخفيت عنها أغراضك ومراميك . فليقل فيك الشيوخ كلمتهم يا هانيء !

وعبثا حاول الرجل ان يدافع عن نفسه ، فان الشيوخ أصدروا حكمهم عليه ونفذوه فيه !

وكان الحكم يقضي باعدام « الخائن ! »

قام حب هانيء على أساس الخيانة ، وغرق في تهمة الخيانة !

وراح ذلك الفارس العربي شهيد خيانة أولى لم يعلم بها السلطان ، وشهيد خيانة ثانية لم يرتكبها !

وعاد العربان الى باديتهم الصحراوية الاولى . وتركوا الجيوش الفاتحة تتوغل في السواحل ، وتجتاح الاقطار العامرة ، وتقيم حكما جديدا على انقاض حكم ينهار ...

فقد اجتاحت الجيوش العثمانية الديار الشامية . وتصدى لها المماليك في سلسلة من المعارك في الطريق الى القاهرة ، وحاولوا وقف التيار الجارف ، ولكنهم فشلوا بالرغم مما ضربوه من ضروب البطولة ، وتحلوا به من شجاعة واقدام .

وسقطت القاهرة . ووقع السلطان طومان باي الثاني ، ولقبه أيضا الملك الأشرف ، في أسر الغزاة القساة ، وهو ابن أخي سلفه الملك الأشرف قانصوه الغوري، بطل مرج دابق . وقد أمعن السلطان العثماني في التنكيل بسكان القاهرة ، وفي اذلال آخر سلاطينها الشراكسة البرجية ، ثم أمر بشنقه ، فشنق طومان باي عند باب زويلة ، في ٢٤ من يناير سنة ١٥١٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٢٢ للهجرة .

وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ..

***

وظلت « صباح » ، منذ ذلك الوقت مشرفة على شئون عشيرتها . ومرت الاعوام فاذا برجال العشيرة ينظرون الى نسائهم نظرة اكبار واجلال، ويرون أن خير ما يصنعونه في الحروب ، ان يسلموا قيادهم لاحدى أولئك النساء الباسلات ، وان ينسجوا في ذلك على منوال سواهم من أبناء البادية .

وبعد موت « صباح » الاولى ، عقد كبار رجال العشيرة مجلسا . وتشاوروا فيما بينهم، فوقع اختيارهم على المرأة التي تحل محلها، واطلقوا عليها اسم « صباح » تيمنا . وهكذا حملت كثيرات من النساء اللواتي تتابعن في قيادة العشيرة ذلك الاسم الميمون !

عرفان الجميل

أحسن اليها فى حياته ، فارادت ان تحول دون
اعدامه !

مصري احب وطنه حب المصري الصميم الوفي لبلاده . وخدمه في ميدان الجهاد والتضحية مدفوعا بحرارة ذلك الحب الخالص المتين !

اسمه « محمد كريم » وهو ابن فلاح جرت في عروقه وعروق آبائه وأجداده دماء الفلاحين الممزوجة منذ القدم برائحة التربة المصرية الخصبة ، وبمياه النيل العذبة المباركة !

كان محمد كريم ذكيا عالي الهمة واسع الآمال ، فتطلع الى المدن دون القرى والمزارع والحقول، وعزم على أن يفسح لنفسه طريقا الى الثروة في معترك الحياة ، في عاصمة مصر الثانية ، حيث يكثر اختلاط الناس بعضهم ببعض ، وحيث يهبط الاجانب من وقت الى آخر ، فيعقدون مع أبنـاء البلاد صفقات تدر الربح على الفريقين .

أما محمد كريم في الاسكندرية ، وكان يميل بطبيعته الى الاخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، فتمكن بمساعدة بعض التجار الذين كانوا يعرفون أهله ويعاملونهم ، من الاشتغال « قبانيا » في الميناء ، يشرف على وزن البضائع الصادرة والواردة ، ويتولى تسلمها أو شحنها لحساب أصحابها ...

لكنه لم يقنع بتلك الحرفة التي لا تتفق مع مطامعه وآماله البعيدة ، والتي تضيق دائرة نشاطها بذكائه وفطنته. فلم تمر سنوات معدودة على ذلك اليوم الذي اشتغل فيه محمد كريم قبانيا بالاسكندرية حتى كان الرجل قد ارتفع من مقام الى مقام ، وأصبح في المدينة رجلا من رجالها الافذاذ ، وزعيما من زعماء الاقتصاد والتجارة ، وعلما يشار اليه بالبنان .

أصبح محمد كريم القباني مدير المكوس وجابي الاموال على الصادرات والواردات ، والرجل الوحيد الذي كان حاكم المدينة المعين من قبل المماليك يتملقه ويتودد اليه ، لأن كلمة محمد كريم في كل ظرف وحال نافذة ، على حين أن كلمة الحاكم دائما في حاجة الى تأييد محمد كريم كي يحلها الناس محلها من الاعتبار .

كانت مصر في ذلك الوقت كما كانت في كل عهد ، محط أنظار الغربيين وهدفا لمطامعهم . وكانت دولتان كبيرتان من دول الغرب ، هما

انكلترا وفرنسا تتطلعان الى الاستيلاء عليها ، لأن وادى النيل ، كان منذ قديم الزمان ولا يزال مفتاح الشرق !

وكانت انجلترا وفرنسا تطمعان فى السيطرة على الاقطار الشرقية كلها ، فتطلعت كل منهما الى « المفتاح » بغية الاستيلاء عليه ٠

وأوشكت انكلترا أن تسبق فرنسا فى بادىء الامر ، اذ حاول أمير البحر « نلسون » أن يحتل الاسكندرية بلا قتال ، فرست سفنه ومراكبه تجاه المرفأ ، وأوفد رسله الى المدينة ، فقابلوا حاكمها وأصحاب الكلمة النافذة فيها ، وحذروهم من الفرنسيين الذين يستعدون للشخوص الى مصر بجيش قوى ، واقترحوا عليهم أن يسمحوا لأمير البحر الانكليزى بدخول الثغر والبقاء فيه للدفاع عن الاسكندرية اذا هاجمها الفرنسيون!

ولكن محمد كريم حمل زملاءه ورفاقه على رفض هذا الاقتراح ، ورجع الرسل الى نلسون خائبين !

وكان الفرنسيون أكثر جراة من الانكليز ؛ فوصلت سفنهم ومراكبهم بعد ذلك بقليل الى الثغر المصرى تحمل جيش القائد «نابليون بونابرت» ونزلوا الى البر فى محلة «العجمى» فى يومى ٢ و٣ من يوليه سنة ١٧٩٨ ، الموافقة لسنة ١٢١٢ للهجرة ٠

حاول السكان بمعونة الحامية المصرية الضعيفة صدهم فلم يفلحوا، وهزم الفرنسيون جيش المماليك الذى اعترض سيرهم نحو القاهرة ، فى بلدة شبراخيت ، فى ١٤ من يولية ، وشعر « مراد بك » كبير مصر وقائد المماليك فى ذلك الوقت ، بأن حكم البلاد يفلت من يده ، ففر مسرعا الى العاصمة للدفاع عنها ، وجمع تحت لوائه جيشا قويا صمد للغزاة الفاتحين فى امبابة . ولكنه منى بالهزيمة فى تلك المعركة التى دارت رحاها فى ٢١ من يوليه . وفى اليوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر ، أى بعد ثلاثة اسابيع من يوم نزول الفرنسيين الى البر فى الاسكندرية ، دخل نابليون بونابرت مدينة القاهرة ورفع على اسوارها وقلعتها أعلام الجمهورية !

***

لم تسد السكينة البلاد ولم يرفرف عليها السلام على أثر استيلاء الفرنسيين على القاهرة ، وفرار مراد بك وأعوانه وفلول المماليك الى الصعيد ٠ فقد قامت فى مصر الثورات ، وتوالت الاضطرابات ، ولم ينعم الفرنسيون بثمرة انتصارهم الا فى الاماكن التى وضعوا فيها حاميات قوية ٠٠٠

وكان محمد كريم القبانى منظم الهياج على الفرنسيين فى الاسكندرية،

فأدرك القوم أن المدينة لن تهدأ وتركن الى المسالمة الا اذا أبعد ذلك الزعيم عنها • فأصدر قائدهم فيها ، الجنرال كليبر ، أمره الى جنوده باعتقال الرجل وارساله الى القاهرة ، لكي يرى القائد العام بونابرت رأيه فيه •

وفي اليوم الثاني من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ رست على ساحل النيل ، أمام بولاق ، سفينة شراعية تقل الاسير ، الذي أرسل الى أحد السجون — وكانت جميعها غاصة بالمعتقلين — توطئة لمحاكمته امام محكمة عسكرية •••

***

حوكم كثيرون من أبناء مصر في ذلك الوقت • وحكم على بعضهم بالسجن وعلى البعض الآخر بالاعدام ، ونفذت فيهم تلك الاحكام • ولكننا لا نورد هنا تفاصيل تلك الحوادث الرهيبة والمآسي الفجعة • ولا ننقل عن سجلات التاريخ تلك الصفحات الرائعة التي دونت عن محاكمة « محمد كريم » القباني الاسكندري • ولكننا نكتفي بذكر حادثة وقعت في أثناء محاكمة ذلك الشهيد ، وأغفل تدوينها في « محاضر » التحقيق عن عمد ، وبأمر من القائد العام بونابرت !

فقد اتهم محمد كريم بأنه تولى ، بعد نزول الفرنسيين الى البر وزحفهم على القاهرة ، تحريض سكان الاسكندرية على حاميتها ، وحمل عربان مديرية البحيرة على عرقلة الزحف ، وارسال الخطابات الى مراد بك لاطلاعه على ما يجرى في الوجه البحري ، واثارة الاضطرابات والثورات في كل مكان يمتد اليه نفوذه •

لم ينكر محمد كريم التهمة التي وجهها اليه القائد ديبوى ، حاكم القاهرة ورئيس المحكمة العسكرية فيها ، بل اعترف بكل ما حوته من تفاصيل ، وأضاف اليها ما غاب عن معرفة الفرنسيين ، وقال لرئيس المحكمة :

— لقد فعلت كل ذلك مدفوعا بحبي لأرض نبتت فيها أسرتي، ودفن فيها أجدادي ، فافعل أنت ما يمليه عليك واجبك • أما أنا فان ضميري مرتاح الى ما صنعت في سبيل الواجب !

وصدر الحكم باعدام المتهم رميا بالرصاص. ولكن القائد بونابرت الذي كان يحاول اكتساب القلوب واستمالة الشعب أصدر قراره بعد الموافقة على الحكم ، بأن يسمح لمحمد كريم بافتداء نفسه اذا شاء ، بمبلغ ثلاثين ألف ريال ، على أن يدفعها في خلال أربع وعشرين ساعة على الاكثر!

وعندما تليت صورة الحكم على القباني مقرونة بقرار القائد العام ، ضحك وقال :

اذا كنتم تعدوننى مذنباً ، فان دفع ذلك المبلغ من المال لن يجعلنى بريئا فى نظركم ، والبراءة لا تباع ولا تشترى ٠ أما اذا كنتم لا تعدوننى مذنبا ، فما معنى تلك الفدية التى تطلبونها ؟

وحاول أصدقاؤه أن يحملوه على العدول عن عناده ، ودفع المبلغ والعودة الى ميدان العمل . ولكنه رفض باباء وقال لمحدثيه :

اما البراءة بلا قيد ولا شرط ، واما الاعدام بلا شفقة ولا رحمة ، فاذا كان مقدرا لى أن أموت ، فان دفع المبلغ لن يدفع عنى الموت ، واذا كان مقدرا لى أن أعيش ٠ فعلام أدفع الفدية ؟

وأمام ذلك العناد العجيب، قرر بونابرت تنفيذ حكم الاعدام عند باب القلعة ، رميا بالرصاص !

***

حدث ذلك فى يوم ٥ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وتحدد يوم ٦ من سبتمبر موعدا لتنفيذ الحكم فى المتهم العنيد الذى رفض ان يفتدى نفسه ، وهو صاحب المال الوافر والأملاك الشاسعة .

وفى مساء يوم ٥ من سبتمبر ، دخلت على القائد ديبوى ، فى مقره بالقاهرة ، فتاة فى العقد الثالث من العمر ، جميلة الوجه ، طويلة القامة ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، وبدون توطئة ولا مقدمة ، بادرته بهذه الكلمات التى تركت الرجل حيران مذهولا !

ــ أيها القائد ، ان التى تخاطبك الآن فتاة يجرى فى عروقها دم فرنسى ، وهى ترغب اليك فى أن تحقق أمنيتها وتجيبها الى طلبها ، ولن يكلفك هذا شيئا على الاطلاق ، لقد حكمتم بالاعدام على محمد كريم القبانى الاسكندرى ، وسمحتم له بأن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال فأبى ، وقد جئت اليك لأقول لك اننى على استعداد لدفع الفدية عن المحكوم عليه ، فابعث معى من يستلم المبلغ كاملا دفعة واحدة ٠ ثم تصدر أمرك باطلاق سراح السجين الذى قررتم اعدامه غدا !

قالت الفتاة هذه الكلمات ، ثم ألقت على مقعد امام القائد الفرنسى كيسا مملوءا بالفضة والذهب ، وأردفت قائلة :

ــ هذه دفعة على الحساب ٠ فالمبلغ كبير ووزنه ثقيل ٠ وهذا ما استطعت حمله معى الآن! فارجو أن تعده ، وترسل معى من يأتيك بالباقى ، او تأتى أنت اذا شئت !

عقدت الدهشة لسان الجنرال ديبوى فى بادىء الامر ، فسكت طويلا ثم قال :

ـ لاأسألك أيتها الآنسة عن الدافع الذى حملك على هذا العمل ، فقد يكون فى حياتك سر ترغبين فى كتمانه !

فقاطعته الفتاة قائلة :

ـ ليس فى حياتى سر كما تظن ، ولا تربطنى بهـذا المصرى رابطة اثيمة كما قد يتبادر الى ذهنك ٠ ولـكنه رجل نبيل شريف ، أنقـذنى من الموت فى الاسكندرية يوم نزولـكم اليها ، وقد قتل أبى فى ذلك اليوم . وبقيت مع والدتى واخوتى الصـغار ، ففتح لنـا محمد كريم باب داره فاحتمينا فيها ، ونحن والحمد لله أغنياء، جمعنا ثروة طائلة فى هذه البلاد، واذا دفعنا اليوم فدية السجين المصرى،فاننا نسدد دينا علينا ، ونثبت أننا لا ننكر الجميل !

***

رفع ديبوى أمر الفتاة الى القائد بونابرت ٠ فطلب القائد أن يراها فذهبت اليه ، وألقت بنفسها على قدميه ، وألحت عليه بقبول ما تعرضه ؛ لأنها تريد أن تنقذ حياة الرجل الذى انقذها واسرتها من الموت !

سألها القائد :

ـ ما اسمك ؟ ومن أى أسرة أنت ؟

ـ اسـمى « مارى آن انجليدس » وأنا ابنـة رجـل يونانى ، وأمى فرنسية ٠ كان أبى يزاول التجارة فى الاسكندرية ويجوب البحار ٠ وقد مات تاركا لنا ثروة كبيرة ٠ فلن يضيرنا أن ندفع منها ما تطلبونه ، لانقاذ حياة الرجل الذى أحسن الينا !٠

* * *

فى يوم ٦ من سبتمبر عام ١٧٩٨ نفذ حكم الاعدام فى محمد كريم القبانى الاسـكندرى رميا بالرصـاص أمام مدخـل القلعـة المشرفة على القاهرة ٠٠٠

أما كيف رفض بونابرت ما عرضته عليه الفتاة ؟ ولماذا رفض ؟

هذا ما لم يسجله تاريخ ولم تدونه مذكرات ٠٠٠

ولو لم يقص بونابرت نفسـه قصة الفتـاة مارى آن انجليدس ، على احد أعوانه الضباط ، فيخصها ذلك الضابط ببضعة سطور فى مذكراته ، لبقى هذا الحادث مجهولا ، ولما علم الناس فيما بعد بما أقدمت عليـه تلك الفتاة اليونانيـة الفرنسية النبيلة ، التى أرادت أن تنقـذ من الموت رجلا مصريا نبيلا !

فاطمة الفيّوميَـة

اارادت ان تقتل او تنتحر تجنبا للعار ، فانقذها
حبيبها بدون أن تخضب يدها بالدم !

في ١٨ من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، جرى الاحتفال بعيد وفاء النيل وفتح الخليج ، بالقاهرة ، وترأس المهرجان نابليون بونابرت ، قائد الحملة الفرنسية التي كانت قد نزلت في الاسكندرية ، وتابعت زحفها الى عاصمة مصر ، ودخلتها في الشهر السابق ٠

أراد القائد الفرنسي أن يثبت لأهل البلاد أنه عازم على احترام عاداتهم وتقاليدهم ، فبدأ يتودد اليهم منذ اليوم الذي حالفه فيه النصر ، ويردد على مسامعهم أنه ما جاء الى مصر ليحارب المصريين ، بل لينقذهم من حكم المماليك ويقضي على الظلم والفوضى !

حل عيد وفاء النيل بعد دخول الفرنسيين القاهرة بشهر واحد ، فكانت فرصة سانحة حرص القائد الشاب المحظوظ على اغتنامها لكي يباشر تطبيق خطته المرسومة ، في التودد الى سكان البلاد التي فتحها ، واقناعهم بأن أعداءه هم في آن واحد أعداؤهم . ويعني بالأعداء الانجليز والترك وحكام مصر المماليك !

وخدع فريق من المصريين في بادىء الأمر بهذه السياسة التي طبقت بمهارة فائقة ، ولكن الوعي القومي تغلب بسرعة على كل ما عداه من الاعتبارات ، وراح الزعماء الشعبيون ينظمون حركة المقاومة السرية ، التي تحولت الى فورات وثورات علنية قبل ان يثبت الغزاة اقدامهم في البلاد.

ولنعد الى الاحتفال الأول بوفاء النيل ، في عهد تلك الحملة التي انتهت في النهاية بالفشل والانسحاب ٠٠٠

ففي ١٨ من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، هرع الشعب القاهري بكثرة الى مكان الاحتفال ، حيث كان العلماء والاعيان قد تجمعوا ، وكان حب الاستطلاع اقوى دافع لأبناء الشعب في تدفقهم على ذلك المكان : ارادوا أن يتفرجوا على ذلك القائد الفتى الذي هزم المماليك ، والذي يحيط به ضباط بأزياء زاهية ، وقبعات يعلوها الريش ، وسيوف تلامس الارض وهم يسيرون عليها ويضربون اديمها بأكعاب أحذيتهم الغليظة !

وكان بونابرت قد أصدر أوامره الى ضباط الجيش وجنوده بأن

يشاركوا الشعب فى أفراحه ، ويتظاهروا بأنهم لا يضمرون لأحد شرا ، وبأن وفاء النيل عزيز عليهم بقدر ما هو عزيز على المصريين أبناء البلاد !

وانقضى اليوم على أحسن حال ٠ وبعد انتهاء المهرجان ، تفرقت الجموع ، وعاد الناس الى بيوتهم وهم يتبادلون الاحاديث ويروون النوادر ويتكهنون بما يخبئه الغد فى طياته ٠٠

وعادت «فاطمة الفيومية» الى منزل خالتها فى بلدة امبابة ، مع العائدين من أبناء الناحية التى دارت حولها رحى المعركة الكبرى التى عرفت بمعركة « الاهرام » وكانت حاسمة فاصلة ، ففتحت للغزاة طريق القاهرة ، فى شهر يوليو من تلك السنة .

وسألت الخالة بنت أختها :

ـ ألم يحدث اليوم ما يكدرك يا ابنتى ؟

فأجابت الفتاة بصوت هادىء ناعم :

ـ كلا ٠٠٠ ولكنت أحسب هذا اليوم فى عداد الايام المألوفة ، لو لم يعترضنى فى أثناء عودتى ، ذلك الشاب الذى نصحتنى بأن آخذ حذرى منه . وقد تجنبته ...

ـ حسن محجوب ؟

ـ نعم ٠٠٠ تخلصت منه فى هذه المرة كما تخلصت منه من قبل ٠ ولم يجرؤ على اللحاق بى لأننى كنت مع جماعة من أبناء الحى ٠٠٠

ـ أعود فاحذرك ياابنتى من الوقوع فى شرك هذا اللعين ٠ فان له يدا فى موت أبيك يوم دخل الافرنج الى هذه البلاد . فهو من صنائعهم، وكان بينه وبين أبيك عداء قديم ٠ ولا بد أن يكون قد اغتنم الفرصة وأوقع به وحرض أولئك الجنود الذين قتلوه على الفتك به والتمثيل بجثته كما تعلمين ٠٠٠

ـ سأكون على حذر يا خالتى ...

ـ نعم ٠ واذا ما أحدق بك الخطر يوما من الايام فعليك بالالتجاء الى الشيخ سليمان الفيومى الذى كان ولا يزال يعطف علينا ..

ـ والى مروان أيضا ٠٠٠

ـ نعم والى مروان ٠٠ اذا عاد الينا ٠٠٠

***

مرت الايام ، والاسابيع ، والشهور ٠٠٠

قامت فى مصر ثورات قابلها الفرنسيون بالحديد والنار . وتحرجت الحالة فى فرنسا نفسها ، فقرر بونابرت ، قائد الحملة على مصر ، أن يعود الى بلاده . . .

فعاد . وألقى بمقاليد الامور الى الجنرال كليبر ، فعينه خلفا له وحاكما على مصر وقائدا للجيش الفرنسى فيها .

وسار الخلف على منهج السلف ، فى معظم الشئون . وكان مثله فى حياته الخاصة وسلوكه مع النساء .

وقد حاول كليبر اغراء فتاة مصرية وايقاعها فى حبائله . . .

تلك الفتاة هى ، فاطمة الفيومية ، التى قاومت الاغراء وافلتت من الشرك الذى نصب لها !

دخل حسن محجوب ذات يوم على القائد الفرنسى وقال :

ـ انى أحمل اليك يا سيدى القائد خبرا يسرك عن الفتاة التى نالت حظوة فى عينيك !

كان حسن محجوب من أولئك الخونة المارقين الذين يظهرون على مسرح الحوادث فى أيام المحن والحروب ، فيساعدون العدو على أبناء وطنهم ، ويتآمرون مع الغريب على القريب ، ويسعون الى رزق ملطخ بالعار ، وأحيانا مخضب بالدم !

عرف حسن محجوب الفتاة فاطمة الفيومية ، وأحبها ، فأعرضت عنه ، وحذرتها خالتها من ذلك الشاب الضال ، فدفعه غيظه الى أن يضمر للفتاة شرا ، ويعتزم الانتقام منها بالقائها بين أحضان القائد الفرنسى الشرس . . .

بدا السرور على وجه الجنرال كليبر ، لما قال له الجاسوس انه يحمل اليه خبرا سارا عن الفتاة التى نالت حظوة فى عينيه ، فابتسم وقال :

ـ هات ما عندك يا حسن . . فان كان خبرك مما يثلج الصدر نفحناك بعطاء حسن !

ـ ان فاطمة الفيومية يا مولاى فى أيدينا . لقد قلت لك انها ابنة فلاح كان خادما عند الشيخ سليمان الفيومى . وقد قتل أبوها فى الاضطرابات التى وقعت فى القاهرة على أثر دخولكم اليها . وسليمان الفيومى هو ـ كما تعلم ـ الذى أجار نساء المماليك بعد فرارهم . ولا يغرنك مايظهره لك الآن من خضوع واستسلام ، فانه يضمر لك ولقومك الشر كله !

ـ دعنا من الشيخ سليمان الفيومي وحدثني عن الفتاة ...

ـ لقد أعدوا لهـا زوجا . وبعـد عشرة أيام سيعقد لهـا على مروان السكندري أحد جنود مراد بك الهاربين ، وقد عاد متخفيا الى القاهرة ...

وأين تقيم الحسناء ؟

ـ عند خالتها ، في بلدة امبابة ...

ـ وما رأيك ؟

ضع تحت تصرفي عشرة من جنودك وسيكون لك ما تريد ...

ـ حسنا !

قصد الخائن في اليوم التالي الى امبابة مع رجاله واقاموا كمينـا على البيت من جميع جهاته ، واختطفوا الفتاة وهي خارجة الى الحقل وأتوا بها الى القائد الفرنسي .

دخل حسن على كليبر دافعا أمامه تلك الغادة الهيفاء ، موجها اليهـا ما أوحت به اليه نفسـه الشريرة من بذيء الـكلام . فأشـار القـائد الى جاسوسه قائلا :

دعها يا حسـن ولا تزجرها . يجب على الصياد الا يروع ظبيـة نافرة كهذه !

ثم التفت الى الفتاة وقال :

ـ لماذا يكتئب قلبك وتختلج شفتاك ؟ هدئي روعك ، لقد أعددنا لك في القصر حجرة فاخرة، فاذهبي اليها ونامي على فراشك الوثير الى الصباح، وغدا .

***

في اليوم التالي نهضت المسـكينة من نومها المضـطرب قبل بزوغ الفجر وجعلت تفكر باحثة عن سبيل للخلاص أو عن حيلة تدفع بها العار عن نفسها .

رفعت طرفها فأبصرت الجدران مزدانة بمختلف الاسلحة فانتفضت في مكانها ، ثم أسرعت فتناولت خنجرا عربيا مرصعا بالجواهر .

جردته من غمده، وتفرست مليا في نصله الذي طالما لجأ اليه اليائسون من الحياة ، ملتمسين منه الراحة والنجاة من العذاب .

لكنها بددت فكرة الانتحار وأعادت النصل الى غمده وأخفته في طيات ثوبها ، وجلست رابطة الجأش ثابتة العزيمة تنتظر ما خبأته لها الايام .

طلع النهار فجاءها الجاسوس الخائن وطلب اليها أن تتبعه الى حجرة القائد • فمشت وراءه بلا تردد •

كان كليبر فى انتظارها ، وقد ارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامته المعهودة . فأسرع الى لقائها واجلسها بجانبه وقال :

ـ فى لغتنا ، أيتها الحسناء ، مثل يقول : «ان الليالى توحى بالنصائح ! فأية نصيحة أوحت بها اليك الليلة التى قضيتها وحيدة فى الحجرة التى هيأناها لك ؟ »

فأجابت فاطمة بلهجة لا أثر للاضطراب فيها :

ـ سوف ترى !

وأراد القائد أن يداعبها •• فاستطرد قائلا :

ـ ان الغضب يزيدك جمالا !

وتابعت الفتاة قولها ، كأنها لم تفطن اليه وهو يقاطعها :

ـ اذا أراد أحد بى سوءا ، هنا ، فاننى سأدافع عن نفسى ••• واذا نزل بى سوء ، فان فى بلدى رجالا أعزة النفوس سوف ينتقمون لى ••

وضحك كليبر وصاح قائلا :

ـ لقد عرفت أولئك الرجال فى ثورة القاهرة ••• كانوا شجعانا حقا ••• ولكن هذا السيف قد أعاد الأمور الى نصابها ••

قال هذا ، وأشار الى سيفه الملقى على فراشه ، ومد يده ليداعب غدائر فاطمة • لكن الفتاة نفرت منه ، وابتعدت قليلا ، ثم قالت بصوت صادر من أعماق صدرها :

ـ لن تروى هذا السيف من دمائنا بعد الآن !

وبسرعة خاطفة ، تناولت خنجرها المخبوء فى طيات ثوبها ، وبادرت القائد الفرنسى بضربة ظنتها صائبة • ولكن كليبر تلقاها بذراعه ، فسالت نقط من دمه على ثوبه الازرق ، وقبض بيده على يد الفتاة ولواها بقسوة ، فسقط الخنجر على الأرض !

ونادى القائد جاسوسه . فأسرع حسن محجوب ، وشد وثاق الفتاة ووقف ينتظر أوامر سيده فقال كليبر :

ـ احبسها فى حجرتها • وليبق ماجرى الآن سرا مكتوما بيننا ••

فالتفتت اليه الفيومية الحسناء وقالت :

ـ لن تنجو من أيدى الرجال ان اخطاتك أيدى النساء !

رأى الفتاة رجل مصرى من خدم القصر فعرفها ، ونقل خبرها الى خالتها والى مروان السكندرى ، وكان العاشق الولهان يبحث عنها فى كل ناحية ومكان ٠

وبوساطة ذلك الخادم ، تمكنت الفتاة من مخاطبة حبيبها ورسم الثلاثة معا خطة لانقاذ المسكينة من محنتها ٠٠٠

وساعدتهم الأقدار !

ففى اليوم الرابع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٠٠ للميلاد ـ الموافقة لسنة ١٢١٤ للهجرة ، أى بعد عشرة أيام أو أقل من اليوم الذى حبست فيه فاطمة الفيومية فى قصر القائد الفرنسى ، سقط الجنرال كليبر قتيلا بيد الفدائى السورى سليمان الحلبى ٠٠

وعمت الفوضى قصر الحاكم ٠ فاغتنم مروان الفرصة السانحة وجاء بفرسه الى جوار القصر ، حيث لاقته حبيبته بعد أن خرجت من سجنها بمعونة ذلك الخادم الصديق ٠

لكن حسن محجوب فطن الى فرارها، فلحق بها واعترض العاشقين قبل رحيلهما ، فصاحت فاطمة الفيومية بمنقذها :

ـ هذا هو أصل البلية ٠ هذا هو الخائن ! وقد جاء من تلقاء نفسه يطلب العقاب على ما جنت يداه !

فوثب مروان وقبض على عنقه وظل يضغط عليه حتى تركه جثة هامدة !

ثم اعتلى السرج ووراءه فاطمة ٠ وأرخى لفرسه العنان فانطلقت كالشهاب المارق حيث السعادة والهناء والراحة ، ولسان حال العاشقين يقول :

أطيب الطيبات قتل الأعادى ... واختيال على متون الجياد
ورسول يأتى بوعد حبيب ... وحبيب يأتى بلا ميعاد !

فى الكنيسة المعلقة

رجل راح شهيد وفائه . وامرأة راحت شهيدة مروءتها ، وفى الحالتين تضحية جديرة بالاكبار والاعجاب .

في الملفات التي كانت محفوظة بمتحف « بونابرت » بالقاهرة ـ الذي أنشأه العالم الفرنسي « شارل جليارد » وتفرقت محتوياته بعد موته ، عثرت على المخطوط الذي أقدمه هنا · وهو مخطوط مؤلف من تسع وريقات مكتوبة بخط دقيق واضح سطر صاحب المتحف على هامش الوريقة الاولى منها انها « جزء من مذكرات الضابط الفرنسي ن · ن » وانها آلت اليه من أبيه الذي أخذها من الطبيب «كلوت بك» · والمخطوط يروى قصة ثلاثة من المصريين وجندى فرنسي في عهد الجنرال «كليبر» ، وهى قصة جديرة بأن تنقل كما رواها كاتب المذكرات «ن · ن» بلاتعديل ولا تحوير ومع ان الكاتب لم يذكر تاريخ وقوع الحادث الذى رواه ، الا انه أشار الى حدوثه في خلال ثورة القاهرة على الفرنسيين في عهد «كليبر» ، وقد نشبت هذه الثورة في النصف الثاني من شهر مارس سنة ١٨٠٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢١٤ للهجرة ، وظلت مشتعلة حتى قمعها الفرنسيون في منتصف ابريل ، أى بعد شهر تقريبا من نشوبها · فيكون الحادث الذى نحن بصدده قد وقع اذن فى الايام الاولى من شهر ابريل سنة ١٨٠٠ ، واليك ترجمة القصة كلها كما دونت فى الوريقات التسع ، ولا فضل لى فيها غير النقل الامين :

***

« لزمت قصر القائد العام بعد اصابتي بجرح منعني من الاشتراك في معركة « عين شمس » التى انتصرنا فيها على الجيش التركى انتصارا تاما · وان كنا لم ننعم بثمرة انتصارنا ، اذ ثارت القاهرة علينا فحاصرنا الثائرون فى الاماكن التى نقيم فيها ، واصبح حتما على الجنرال «كليبر» ـ وهو خارج العاصمة ـ أن يستولى عليها من جديد ويخمد الثورة ويقضى على القائمين بها، وبدأ بعض معاوني القائد يتذمرون ويتهامسون قائلين : ان السياسة التى سار عليها بعد عودة الجنرال « بونابرت » الى فرنسا . افقدتنا ما كنا قد ربحناه من حب المصريين وتعاونهم معنا ، وان مصير الحملة أصبح الآن رهن الاقدار ، بسبب «كليبر» الذى لن يستطيع الاحتفاظ بالارث الذى تركه له بونابرت ·

علمت من صديقى «فيلبير» ان المصريين الذين فى خدمة القائد العام بقصر الالفى متذمرون أيضا من المعاملة السيئة التى يجدونهـــا منه ومن المقربين اليه . وقال لى «فيليبير» أيضا : ان القائد العام طرد من القصر الحوذى «أحمد المنبارى» والطباخ «شلبى يعقوب» واخته «أميرة» التى كانت تدير المغسل وغيرهم من الذين كان بونابرت يشملهم بعطفه . ذلك ان الحوذى رفسه حصان فكسر فخذه ، والطبـــاخ هبت فى وجهه النار فاصيب بحروق بالغة. وبدلا من أن يكافئهما القائد ويأمر بالعناية بهما ، فانه طردهما من الخدمة . وآثرت الفتاة «أميرة» أن تصـــحب أخاها . ويؤكد فيليبير أن الثلاثة فتحوا دكانا صغيرا لبيع السلع والاطعمة البلدية فى مصر القديمة ، بالقرب من كنيسة العذراء التى يسميها الاقبـــاط « الكنيسة المعلقة » لانها قائمة على ارتفاع كبـير من مستوى الطريق . وقد زارهم فيليبير فى دكانهم لانه يميل الى الفتاة ويعرض عليها الزواج ولكنها ترده نافرة . وسأزورهم أيضا مع صديقى عندما يعود الهدوء الى المدينة ، ولكن هل يعود اليها الهدوء وهل نعرف من جديد تلك الراحة التى عرفناها مدة من الزمن فى عهد بونابرت ؟

***

«ضرب الجيش بقيادة «كليبر» نفسه الحصار على القاهرة ، وبدات فصائله تتسرب الى الاحياء الثائرة وتقتحم معاقل الثائرين الذين يبدون فى المقاومة عنادا يدهش عقولنا . ويوجد بينهم بضعة آلاف من الترك مع قوادهم، وبعض المماليك الذين شردهم بونابرت من قبل. وتطوف على الالسنة اسماء « عثمان كتخدا ومحمد الالفى وحسن الجداوى ومصطفى البشتيلى والسيد المحروقى » الذى يتولى تمـــوين الثائرين . وظهر من جديد رجل سبب للحملة كثيرا من المتاعب هو «عمر مكرم» ، ويقال : أن هذا الرجل تمكن من اقناع زعماء الاقباط بأن يشتركوا مع المسلمين فى هذه الثورة ففعلوا ، ولم يبق منهم على ولائه للفرنســيين غير « المعلم يعقوب » الذى نسميه « جنرال » ويعقد زعماء الاقبـــاط اجتماعاتهم فى بيت «المعلم جرجس الجوهرى» حيث يضعون الخطط المشتركة بينهم وبين « مكرم والمحروقى والبشتيلى » للقضاء على الحامية الفرنسية قبل أن تصل اليها الأمداد من خارج العاصمة . اننا فى مركز لا نحسد عليه. ويهاجمنا الثائرون فى عقر دورنا . فالقصر نفسه لم يسلم من جرأتهم . وقد قتل كثيرون من رجالنا ضربا بالعصى فى الشوارع والازقة التى سد معظمها بالمتاريس . ويخيل الينا انه لم يبق لنا صديق فى هذه البلاد .

***

قضينا عشرة أيام رهيبة. فمدفعيتنا تدك الاحياء بمقذوفاتها وتدمر البيوت على رءوس المعتصمين بها . وقد اشتد القتال على الخصوص فى

بولاق ومصر القديمة والخرنفش وحول الازهر · ونحن نسترجع المدينة الثائرة حيا بعد حي وزقاقا بعد زقاق · ومن حسن حظنا ان الثـــائرين يفتقرون الى الاسلحة النارية فى حين انهـــا متوافرة لدينا ولولاها لكان مصيرنا الهلاك أو الفرار · وترد علينا كل يوم أخبار سارة عن تغلغـــل جنودنا فى الاحياء التى ترتكز فيها الثورة · وفى كل يـــوم تزداد ثقتنا باننا سنخرج من هذه التجربة القاسية سالمين !

تلقيت أمرا بالذهاب مع خمسين من رجالنا لنجدة فصيلة من الرماة عهد اليها باخماد الحركة فى « مصر القـــديمة » حيث الكنائس واطلال الاسوار والمقابر ، وقد انقطعت عنا أخبار هذه الفصيلة ويخشى أن تكون قد وقعت فى كمين !

***

لم يخطىء ظننا : فقد فاجأ الثوار فصيلة الرماة وكانت بقيـــادة فيليبير · وتشتت رجالها ، فقتل منهم من قتل ، وهرب الباقون وعادوا الينا . ولا يزال فيليبير مفقودا . وقال بعض الجنود : انه جرح وان المصريين حملوه معهم واختفوا بين البيوت القديمة المتداعية · فاذا كان فيليبير وبعض رجاله قد وقعوا فى الاسر ، فلا بد من انقاذهم !

***

شهدت منظرا لن أنساه ما حييت ! فقد سرت مع رجالى واخترقنا الطرقات الضيقة الملأى بالاوحال نحو المكان الذى فوجئت فيه الفصيلة فى « مصر القديمة » · وعلى مقربة من الكنيسة المعلقـــــة ، رأينا جمعا من المصريين فاطلقنا عليهم النار وهاجمناهم بحراب البنادق واذا بهم يتسللون خلف الجدران ويختفون ماعدا خمسة منهم . ظلوا فى هرج ومرج أمام باب دكان صغير ، فلما اقتربنا منهم رفعوا أيديهـم مستسلمين · وهنا فوجئت بالصدمة التى لن أنساها فقد رأيت صديقى فيليبير يخرج من الدكان ويصيح بنا من بعيد قائلا : اننا قتلة مجرمون ، ثم يستل سيفه ويغمده فى صدره فيسقط على الارض والدم يسيل منه بغزارة ! وصعقنا لهذه المأساة · ولكننا عرفنا الحقيقة فيمـــا بعد ، فأكبرنا عمل رفيقنا وأكبرنا أيضا مسلك المصريين الثلاثة الذين طردهم الجنرال القائد العام من القصر · وهم الحوذى أحمد المنباوى ، والطباخ شلبى يعقوب ، وأخته الفتاة أميرة !

ويتلخص ماحدث فى ان الفصيلة التى قادها فيليبير وقعت فعلا فى كمين · فقتل سبعة من رجالها ، وفر الباقون وأصيب فيليبير بجرح فى جنبه · وشاءت المصادفات أن يقع ذلك الحادث بالقرب من دكان المصريين الثلاثة ، حيث كان شبان الحى يجتمعون · وعرف المنباوى وشلبى صديقهما

فيليبير فحملاه الى الكنيسة المعلقة حيث كان الرهبان الاقبـــاط يسعفون الجرحى ويواسونهم • وهناك لحقت به الفتاة أميرة وأحاطته بعنايتها ورعته بعطفها. وبعد أن ضمدت جرحه ، وطيبت خاطره ، أبقته في حمى الرهبان بضعة أيام • حتى اذا ماستعاد قواه ، نقلته برفقة أخيها شلبي وصديقهما المتبارى الى أطراف الحى لاطلاق سراحه واعادة حريته اليه. وعندما وصل الاربعة أمام الدكان ، وجدوا جماعة من الثائرين أوقفوهم برهة من الزمن وراح الجميع يتباحثون في كيفية اعادة الجريح الى قومه بدون أن يصاب بأذى • وفي تلك الاثناء وصلنا ، فأطلقنا النار على الحشد واقتحمنا الزقاق بالحراب • واسفر هجومنا عن مصرع بعض المصريين ومن بينهم الاخ والاخت فقد قتلنا الفتاة المسكينة أميرة وأخاها شلبي ، في الوقت الذي كانا فيه يضعان خطة لانقاذ رفيقنا فيليبير ! •• وقد صعد الدم الى رأس الشـــاب المسكين عندما رأى صديقيه يسقطان على الارض قتيلين فانتحر أمامنـــا على تلك الصورة المفجعة !

❋ ❋ ❋

عدنا الى مراكزنا بعد هذه المأساة حاملين معنا جثة فيليبير المضرجة بالدم • وقبل ان نغادر مكان الحادثة ، أمرت رجالي بأن يقفوا صفا واحدا ويؤدوا التحية العسكرية للفتاة وأخيها • ثم سرنا مع البقية الباقية من المصريين الى الكنيسة القريبة ، وقد خمدت في صدورنا وفي صدورهم فورة الحقد امام رهبة الموت وجلاله • وطلبنا من الرهبان ان يصلوا على الجثث. جثث فيليبير وشلبي وأميرة ، ففعلوا ، وكان شـــبان الحى المسلمون يقفون خاشعين ، وقد اختلطوا برفاقهم الاقباط ، أما نحن فكان موقفنا اشبه بموقف المتهم أمام محكمة العدالة • ويالـه من موقف رهيب ! فان صدرى ينقبض من شدة التأثر ، وأنا ادون هذه الحادثة بعد وقوعهـا وأتخيل أمام ناظرى جثة تلك الفتاة التى أحبها فيليبير ، والتى فرقت بينه وبينها الظروف فلحق بها الى الآخرة. ولا تزال ترن في اذني أنغام الاناشيد الحزينة التى كان الرهبان يرتلونها امام هيكل العذراء في الكنيسة المعلقة ، وهم يرفعون أيديهم ليباركوا الجثث الثلاث ! »

❋ ❋ ❋

هذا مادونه الضابط «ن • ن» في مذكراته عن مصرع زميله «فيليبير» وطباخ الجنرال «كليبر» الفرنسى ، «شلبي يعقوب» وأخته «أميرة» المصرية الثائرة • نقلته بالحرف الواحد بلا زيادة ولا نقصان !

عيد في السجن

الناس اخوة . والاعياد مناسبات سعيدة يغتنمونها لتبادل المشاعر التي تمليها تلك الأخوة عليهم .. وخصوصا في أوقات الشدة !

عاش في مصر عالم فرنسي يدعى « شارل جلياردو » جمع في وقت من الأوقات ، وفي منزل قديم بحي السيدة زينب يعرف باسم «بيت السناري» عددا كبيرا من الكتب والتماثيل والاسلحة والوثائق والادوات التي يرجع تاريخها الى عهد الحملة الفرنسية على مصر في سنة ١٧٩٨ ، وأطلق على ذلك كله اسم « متحف بونابرت » وهو القائد الذي كان على رأس تلك الحملة والذي اعتلى العرش فيما بعد باسم نابليون الاول .

كانت خزائن متحف بونابرت تضم كمية من المخطوطات ، بعضها له قيمته ، وبعضها لا قيمة له وقد تبعثرت محتويات هذا المتحف بين مصر وأوروبا ٠

وفي خزانة المخطوطات عثرت مرة على بضع وريقات صفراء اللون، يقول الذي ملأها بسطور متراصة تصعب قراءتها : انه اراد أن يدون قصة سجين فرنسي وقع له حادث مؤثر في احد سجون مصر ، وهو الذي روى القصة لكاتب المخطوط بعد خروجه من السجن .

وفيما يلي ترجمة ما كتبه الراوي الفرنسي المجهول ، الذي لم يوقع المخطوط باسمه ، عن السجين واسمه « روديل » ٠

قال الرجل :

في شتاء عام ١٧٩٩ حدثت في القاهرة حركات عدائية ضد الفرنسيين قمعها جنود الاحتلال بكل قسوة ٠ وأشرف الجنرال كليبر نفسه على عملية القمع لأن الحركات العدائية قامت على أثر تسلمه الحكم بعد سفر الجنرال بونابرت فاعتقد انها موجهة ضده شخصيا .

في حي الازبكية حيث مقر الحكام الفرنسيين حاول فريق من الناس اضرام النار في ملهى « تيفولي » في ليلة كان ضباط الجيش يقضونها هناك ، يشربون ويرقصون .

وقبض على سبعة من المحرضين وكان بينهم رجل فرنسي يدعى روديل !

دهش الفرنسيون لما علموا بوجود هذا الفرنسي المواطن بين الثائرين المصريين • وهو يمتهن صناعة الخناجر والسكاكين • وكانوا يعرفون أنه على علاقة حسنة مع الاهالى ولكنهم ماظنوا ان هذه العلاقة ستصل الى حد الاشتراك معهم فى التآمر على مواطنيه وتحريض المصريين على الثورة •

ارسل المقبوض عليهم الى السجن . وكان روديل الفرنسى بينهم .

أراد الضابط المكلف بمراقبتهم قبل محاكمتهم أن يضع السجين الفرنسى وحده فرفض روديل •

وحوكم المشاغبون أمام محكمة عسكرية حكمت بسجنهم بعد جلدهم• ونفذ الجلد وأرسل المذنبون الى السجن بجوار قلعة المقطم ، ووضعوا كلهم فى عنبر واحد •

وبعد مضى بضعة أسابيع عليهم داخل السجن ، حل موسم الأعياد عند النصارى • وكان بين المسجونين كهل قبطى يدعى جرجس ، علاوة على وجود الفرنسى روديل المسيحى بينهم أيضا •

كانت ادارة السجن ترفض اعطاء الاذن لأهل المسجونين بزيارتهم • وطلبت زوجة روديل من القائد العام نفسه ، الجنرال كليبر ، أن يسمح لها بزيارة زوجها ، فرفض ، وكان كليبر غليظ القلب قاسى الفؤاد •

وقد روى لى روديل ان رفاقه المسجونين معه ، اجتمعوا حوله وحول صديقه جرجس القبطى ، يوم عيد الميلاد ، وأعطوهما دليلا ملموسا على مايمكن أن يصل اليه التعاون والتحابب بين المسجونين الذين يعانون وطأة الاقدار معا .

جاء المسجونون بجرايتهم من طعام وماء ، وأرسلوا يبتاعون من السوق قطع الحلوى بما جمعوه من نقود قليلة ، وبتصريح خاص من ادارة السجن ، وجاءوا بشموع أضاءوها وأزهار زينوا بها أركان العنبر وجدرانه وقضوا ليلتهم فى بهجة شاملة يغنون ويتبادلون الأحاديث .

أرادوا أن يعبروا للسجين الفرنسى الذى تعاون معهم فى مكافحة الظلم ، عن عطفهم وعرفانهم للجميل وشكرهم على موقف روديل النبيل منهم ومن بلادهم •

وأرادوا أيضا ، فى وقت واحد ، أن يعبروا لزميلهم ورفيقهم جرجس القبطى عن دعائهم له – ولانفسهم – بقرب الخلاص من الاسر ، والعودة الى رحاب الحرية . .

فى عنبر السجن المزدان بالازهار والرياحين ، وعلى ضوء الشموع

الصفراء . وعلى الانغام النشاز التي كانت تنطلق من الحناجر الخشنة، قضى المسجونون المصريون ورفيقهم الفرنسي ليلة العيد ..

وفي اليوم التالي حمل مدير السجن الخبر الى الجنرال كليبر القائد العام والحاكم بأمره ، وقص عليه كيف انه سمح لنزلاء السجن بأن يرفهوا عن انفسهم ويجعلوا ليلة العيد مملوءة بالبهجة بالنسبة الى زميلهم الغريب ، الذى ساعدهم فى ثورتهم ، وشاركهم فى سجنهم .

وشعر كليبر بشيء من الخجل ، وهو الذى كان قد رفض لزوجة مواطنه الفرنسي روديل الاذن لرؤية زوجها في سجنه ..

خجل كليبر من نفسه ..

وأدرك أن المسجونين الذين حبسهم لأنهم ثاروا على حكمه ، هم اكثر نبلا منه ، وانهم أعطوه درسا رائعا فى الوفاء والاخاء .

فاصدر أمره باطلاق سراحهم جميعا .

وخرجوا من السجن . وروديل نفسه هو الذى قص علي ماحدث فى ليلة العيد ، وقال لى : انه يعد تلك الليلة اسعد ليلة فى حياته . وان سنة ١٨٠٠ كانت بالنسبة اليه أحب السنوات على الاطلاق .

***

هذه هى السطور التى دونها الكاتب المجهول فى الوريقات الصفراء التى عثرت عليها فى المتحف . فنقلتها كما هى .

الناس اخوة . والاعياد مناسبات سعيدة يغتنمونها لتبادل المشاعر التى تمليها تلك الاخوة عليهم ـ وخصوصا فى أوقات الشدة ..

ومن مظاهر تلك الاخوة بين الناس . هذا الحادث الذى رواه الكاتب المجهول ، والذى اظهر فيه جماعة من نزلاء السجن المصريين شعورا كله شرف واباء وعطف ومحبة . نحو رجل غريب عنهم فى الوطن وفى الجنس وفى الدين ـ ولكنه وقف منهم موقفا نبيلا ، فشكروه بطريقة لا تقل نبلا عن موقفه !

***



زينب

ثار لها أخوها من الرجل اللى اعتدى عليهـــا
ولكنه أعدم فآثرت اللحاق به !

ابتعدت السفينة خلسة عن الشواطيء المصرية ، يسترها الظلام الحالك ، ومخرت المياه متجهة الى عرض البحر ، حاملة القائد نابليون بونابرت وآماله وأمانيه .

نادى القائد ربان السفينة وقال له :

ـ لقد وضعت حياتي ومستقبل فرنسا بين يديك ، فاما أن تنسل بسفينتك بين مراكب الانكليز التى تجوب البحار فى طلبنا ، لكى تقطع علينا خط الرجعة الى بلادنا ، فتقدم لبلادك خدمة يسجلها لك التاريخ على صفحاته • واما أن تقع بين أيديهم ، فتقضى علينا وعلى الوطن معا !

فبسط الربان ذراعه مقسما وقال :

ـ سأفلت منهم يا جنرال ، أقسم لك بشرفى وأولادى !

ـ شكرا لك •• !

وصافحه بونابرت ، ثم اتكأ على حاجز السفينة ، وشخص ببصره الى النجم الساطع فى الفضاء اللانهائي ، ذلك النجم الذى كان الفاتح يسميه نجمه ، والذى اتخذه رمزا لأمانيه ومطامعه !

***

مرت ثلاثة أيام والسفينة تفلت كل يوم بأعجوبة من المراكب الانكليزية ، فنادى القائد ربان السفينة ثانية ، فى صباح اليوم الرابع ، وهنأه على براعته ومهارته • وأكد له من جديد أنه يثق به ويضع حياته بين يديه •

وبينما بونابرت يخاطب الربان ، اذا بضجة تتصاعد من جوف السفينة ، فانتفض القائد وسأل ما الخبر ؟ وأسرع الربان الى مصدر الجلبة ، ثم عاد يحيط به بحارة السفينة ، ومعهم شاب غريب ، أوثقت يداه وراء ظهره ؛ والدم يسيل بغزارة من جرح فى خده الأيمن •

وخاطب الربان القائد قائلا :

ـ سيدى الجنرال • قبض البحارة على هذا الرجل متلبسا بجريمة

شنعاء . فقد وثب على الجندى « فورتين » من الحرس ، وطعنه بخنجره أربع طعنات في صدره وكتفه ، فسقط المسكين صريعا ، وأسرع البحارة الى الاحاطة بالقاتل ، الذى حاول أن يقاوم مهددا بالقتل كل من يقترب منه . لكنهم تمكنوا من انتزاع الخنجر من يده ، فأصيب بجرح في خده في أثناء العراك ، واظنه لا يفهم لغتنا ، ويتكلم العربية فقط .

اقترب القائد من الشاب الذى كان هادئا ساكنا ، كمن يشعر بارتياح وطمأنينة ، بعد القيام بعمل يعده واجبا عليه ، وخاطبه بالفرنسية فلم يجب ، فأمر بونابرت باحضار مترجم من رجال الحاشية ، ليعلم حقيقة الأمر ، وليكشف الستار عن سر ذلك القاتل الغريب .

***

جاء المترجم وألقى أسئلته على الرجل ، فلم يمانع فى الاجابة :

ــ ما اسمك ؟

ــ عبد الملك شهيب .

ــ من أى بلاد أنت ؟

ــ من مدينة غزة لكننى استوطنت القاهرة منذ أربع سنوات .

ــ وما جاء بك الى هنا ؟

ــ الأخذ بالثأر !

ــ ممن ؟

ــ من النذل الذى قتلته !

ــ وهل أساء اليك هذا الرجل ؟

ــ لو لم يسىء الى لما تعقبته حتى قتلته !

ــ وماذا فعل ؟

فسكت الرجل واعترته رعشة شديدة . ثم نظر الى الأرض واغرورقت عيناه بالدموع . لكن بونابرت أشار الى المترجم بالاستمرار في السؤال :

ــ قل لنا ماذا فعل ذلك الجندى حتى استبحت لنفسك حق الاقتصاص منه ؟

فرفع الرجل رأسه ، ونظر الى من كانوا يحيطون به من قواد وجنود، فقرأ على وجوههم ماتضمره له قلوبهم من شر وبغض وكره ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة وقال :

ــ لو ارتكب رجل منا نحو أحدكم جريمة كالتى ارتكبها ذلك اللعين نحوى ، لانتقمتم لابن وطنكم من البلاد كلها ، ولأمطرتم علينا وابل

رصاصكم وقنابلكم ، أو أعممتم فينا السيوف والرماح : واستبحتم لانفسكم انتقاما أروع من الانتقام الذى نفذته فى غريمى ! انى عالم بمصيرى الذى ينتظرنى . ولكن لابد لى قبل أن أموت من أن أصب لعناتى على الأقوام الظالمين ... عليكم أنتم !

فقاطعه المترجم ساخطا :

ـ لا تسترسل فى غضبك يا رجل ، واكتف بذكر الدواعى التى دفعتك الى القتل !

ـ حسنا ... كنت أسكن منزلا صغيرا ، على مقربة من تل العقارب فى مصر ، مع أختى ، وهى أصغر منى سنا . وكنت أتغيب فى النهار ، وأعود الى البيت بعد صلاة الغروب . ففى ذات ليلة عدت الى منزلى ، فوجدت فيه الجندى الذى قتلته .. ولا تسل عن الجرم الذى اقترفه .. فانه فى نظر أبناء قومى ، أفظع جرم يرتكبه انسان ... يا ليته ترك أختى جثة هامدة ... لكنت اذن طرحتها على قمة التل طعمة للجوارح ، بدلا من الاحتفاظ بها ملطخة بالعار ، مدنسة بملامسة ذلك الحيوان النجس ..! نعم ... حاولت أن أقبض على عنقه ، واقتص منه فى ذلك المساء المشئوم .. لكن الجبان فر هاربا ، وأفلت من يدى .

ـ وكيف علمت بمقره بعد ذلك ؟

ـ تركت أعمالى ، ووقفت نفسى منذ ذلك اليوم مراقبا للجنود فى روحاتهم وغدواتهم ، وأقسمت أمام الله وأمام أختى أن أنتقم من الفاسق الأثيم ، ولو بذلت حياتى فى سبيل ذلك الانتقام . ! . أما طريق الوصول اليه ، وصعودى خفية الى هذه السفينة ، فهذا مالاشأن لكم به .. لقد تم لى ما أردت ، فأخذت بثأرى ؛ وغسلت بدم المجرم العار الذى ألحقه بى وبأسرتى . ! . والآن ، ليفعل بى قائدكم ما يريد ، فلا يهمنى شىء ، ولا أطلب منكم رحمة ولا شفقة .. القاتل يقتل ... لا أجهل ذلك .. وحياتى بين أيديكم ، فهى لكم ... خذوها اذا شئتم !

***

فى صباح يوم الأربعاء ١٨ من يونيو سنة ١٨٠٠ ، أى فى التاسع والعشرين من شهر بريريال سنة ٨ للجمهورية الفرنسية ــ الموافق للسادس والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٥ هجرية ، أعدم عبد الملك شهيب ، رميا بالرصاص ، فى ثغر طولون الفرنسى ؛ بتهمة القتل بتعمد ..

وفى ذلك اليوم نفسه ، نفذ حكم الاعدام فى كل من سليمان الحلبى ، قاتل الجنرال كليبر ، قائد القوات الفرنســية فى مصر ، وشركائه فى

التآمر على اغتيال ذلك القائد ، وهم : عبد القادر الغزى ، ومحمد الغزى ، وعبد الله الغزى ؛ والسيد أحمد الوالى ٠

ولم يكن المتهم الأخير ـ السيد أحمد الوالى ـ الا ابن خال الشاب عبد الملك شهيب ٠ فكأن الأقدار شاءت أن يعدم الاثنان فى يوم واحد ، وان تكون التهمة الموجهة اليهما واحدة ، وان ينفذ الحكم فى السيد أحمد الوالى فى تل العقارب . ! .

فهناك ـ فوق ذلك التل المشرف على منزل عبد الملك واخته المسكينة ـ سقط رأس أحمد الوالى تحت سيف الجلاد ، وهناك احرقت جثته ، بينما كان ابن عمته عبد الملك يعدم رميا بالرصاص ، فى مدينة طولون ..

***

وظلت زينب ـ اخت عبد الملك وفريسة الجندى فورتين ـ مقيمة فى ذلك المنزل الملعون ، تندب حظها ، وتذرف الدموع السخينة على مقتل ابن خالها ، وتعلل النفس بلقاء أخيها عائدا من رحلته ، حاملا اليها خبر انتقامه من مغتصب عفافها وسالب شرفها ٠

انتظرت طويلا ولم يعد ذلك الأخ المحبوب ، فتسرب القنوط الى نفسها ، وفكرت فى الانتحار تخلصا من حياتها التعسة .

وبينما هى على هذه الحالة ، تتقاذفها الهواجس والشجون ، ينعشها الأمل تارة ؛ ويستولى عليها اليأس طورا ، اذا بجندى فرنسى يقترب من المنزل ، وبصحبته ثلاثة رجال عرفت بينهم زينب الشيخ سليمان الفيومى صديق أخيها عبد الملك ٠

خفق قلب الفتاة وشعرت بأن القادمين يحملون اليها خبرا ، فاسرعت اليهم ، وسألت الرجل الذى عرفت فيه صديق أخيها :

ـ عمن تبحثون ؟

ـ عنك يا زينب ٠٠

ـ ما وراءكم ؟

ـ ان هذا الجندى مكلف بابلاغك خبرا مؤلما ٠٠ ان أخاك ٠٠

ـ عبد الملك ٠٠ ؟

ـ عبد الملك ٠٠٠ أعدم فى فرنسا !

فصرخت الفتاة صرخة مفجعة ، وسقطت على الأرض مغشيا عليها ٠

وبعد يومين ، عثروا فى تل المقارب ، وفى المكان الذى أحرق فيه احمد الوالى ، على جثة فتاة ملقاة فى بقعة من الدم المتجمد ٠ وتبين من التحقيق أنها قطعت عرقا فى مقدمة ذراعها ، فسالت دماؤها ، وفاضت روحهـا ٠٠

ودفنت زينب فى ذلك المنزل ، الذى شهد عارها ، ورددت جدرانه صدى زفراتها ؛ وضمت أرضه رفاتها !

إنتقام سليمان الحلبى

هل حركت عوامل اخرى . علاوة على العـــوامل القومية ، يد سليمان الحلبى ، فاقدم على قتل الجنرال كليبر ؟

في اليوم الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٠٠ ، أي في التاسع والعشرين من شهر بريريال سنة ٨ للجمهورية الفرنسية ، الموافق للسادس والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٥ هجرية ، نفذ حكم الاعدام ، في مكان بالقرب من القاهرة يدعى « تل العقارب » في كل من سليمان الحلبي ــ قاتل الجنرال كليبر «سر عسكر» القوات الفرنسية بمصر ــ وشركائه في التآمر على اغتيال ذلك القائد ، وهم : عبد القادر الغزى ، ومحمد الغزى ، وعبد الله الغزى ، واحمد الوالى .

ويتضح من التحقيق الذى قامت به السلطات المختصة في ذلك الوقت ، ومن محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية فرنسية ، ومن ظروف القضية وملابساتها ، ان العوامل التى دفعت القاتل الى ارتكاب جريمته ، قومية ودينية في آن واحد . واليك المراحل التى مر بها هذا الحادث التاريخى ، الذى كان له أثر بعيد في تقرير مصير الحملة الفرنسية على مصر ، ومستقبل الشرق العربى في مطلع القرن التاسع عشر :

كان سليمان الحلبي في الرابعة والعشرين من العمر عندما قتل القائد الفرنسي . وهو من مواليد حلب بسورية ، وكان أبوه الحاج محمد أمين يبيع السمن فيها .

وكان جريئا شجاعا يميل الى المغامرة والمجازفة . وعرف فيه اثنان من أغوات الاتراك هذه الصفات ، وهما أحمد أغا وياسين أغا ، من رؤساء الجنود الانكشارية في حلب ، فعولا على استخدامه في قضاء المآرب الذى طالما سعى اليه قادة الجيوش العثمانية في ذلك الوقت ، **وهو قتل طائفة من كبار الفرنسيين المدنيين والعسكريين في مصر ، لالقاء الاضطراب في صفوف الجيش الفرنسي .**

كان أحمد أغا يقيم في مدينة غزة هاشم ، بفلسطين ، حيث لحق به ذات يوم صديقه وزميله ياسين اغا قادما من حلب . وهناك فكر الرجلان في ايفاد رسول الى مصر لاغتيال الجنرال كليبر ، قائد الفرنسيين فيها . وكان سليمان الحلبي يتردد على المدينة ، فعرضا عليه القيام بهذه المهمة ، ووعداه بالمال الكثير ، وبالتوسط لدى ابراهيم باشا ، حاكم حلب ، ليعامل أباه بالحسنى ويساعده في تجارته .

قبل الشاب ماعرضه عليه الرجلان ، وأخذ منهما أربعين قرشا ، فابتاع سكينا من سوق غزة ، وركب هجينا ، وسار مع قافلة قاصدة الى مصر ·

نزل الحلبى فى الجامع الازهر ، حيث اتصل بأربعة من مواطنيه ، وهم عبد القادر الغزى ، ومحمد الغزى ؛ وعبد الله الغزى ، وأحمد الوالى ، واطلعهم على السبب الذى جاء الى مصر من أجله ؛ فحاولوا حمله على العدول عن عزمه ، فأبى بل انه تمكن من اقناعهم برأيه ، وبوجوب التعاون معه ، لأن فى قتل الحاكم الفرنسى عملا يرضى الله ويرضى الضمير ويعيد الى البلاد التى يحكمها ذلك الاجنبى الغليظ حريتها وكرامتها ، وقد امتهنهما الفرنسيون امتهانا علنيا !

هذا ما دونه التاريخ · وهذا ما أسفر عنه التحقيق فى قضية سليمان الحلبى ··

ويقول التاريخ ايضا :

فى الرابع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٠٠ ، أى بعد أن أقام فى العاصمة المصرية واحدا وثلاثين يوما ، ذهب الى حديقة القصر الذى يقيم فيه الجنرال كليبر بحى الازبكية ـ وهو قصر الألفى ـ واختبأ فى الحديقة ، واغتنم فرصة خروج القائد اليها للنزهة ، فاقترب منه باسطا يده كمن يطلب احسانا ، وأشار اليه كليبر ليبتعد قائلا : « مافيش ! ما فيش ! » ولكن الشاب تظاهر بأنه يريد أن يقبل يد القائد ، فمد له كليبر يده ، وأمسك الحلبى بها بيساره ، ورفع سكينه بيمينه ، وطعن بها القائد الفرنسى أربع طعنات أودت بحياته ، وخرج الى الطريق حيث قبض عليه ·

وحوكم سليمان الحلبى أمام محكمة عسكرية ، وحكم عليه وعلى رفاقه الاربعة بهذه العقوبات : سليمان الحلبى ، وعمره ٢٤ سنة : تحرق يده اليمنى ، ويقتل على الخازوق ، وتبقى جثته عليه حتى تلتهمها الطيور ، وذلك فوق التل الذى ببر قاسم بك ، ويسمى «تل العقارب» .

المتهمون الآخرون : تقطع رءوسهم ، وتوضع على نبابيت ، ويحرق جسمهم بالنار ، وذلك أمام سليمان الحلبى قبل أن ينفذ فيه الحكم · وتبقى الجثث جميعها معروضة للانظار ·

وفى الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٠٠ ، أى بعد وقوع الجريمة بأربعة أيام ، نفذ الحكم فى المتهمين على هذا النحو .

هذا ملخص ما دونه المؤرخون عن ذلك الحادث ، وبينهم الجبرتى الذى سجل الوقائع فى تاريخه المعروف ، كما رآها وكما نقلت اليه ، وهو

من المعاصرين لأبطال الحادث ولا تخرج اقوال المؤرخين الاوروبيين ، وما دون فى الوثائق الرسمية للحملة الفرنسية ، عن حدود هذه الرواية كما لخصناها ٠

فالاعتقاد السائد ، هو ان الشاب سليمان بن محمد أمين الحلبى قد اغتال الجنرال كليبر مدفوعا بدافع القومية ، او بدافع التعصب الدينى ، أو بالاثنين معا ، لكى يشفى غليله من حاكم أجنبى غريب عنه فى الجنسية والدين ، وعلى امل ان ينال من الذين دفعوه واستخدموه ، الاجر المادى الذى وعدوه به ، بعد أن نقدوه الدفعة الاولى وهى لا تتجاوز اربعين قرشا ـ وكان لهذا المبلغ فى ذلك الوقت قيمة غير قيمته اليوم !

ولكن بعض الذين انصرفوا الى دراسة تلك الحقبة من تاريخ الشرق العربى ، دراسة تحليلية ، وبحثوا عن التفاصيل وعن ملابسات الحوادث التى وقعت فى مصر وسورية فى أواخر الجيل الثامن عشر وأوائل الجيل التاسع عشر ، أولئك الباحثون المدققون ، القوا أنوارا جديدة على طائفة من الوقائع ، تثير بعض الشكوك حول ما دونه المؤرخون وأثبتته الوثائق الرسمية ٠ وواقعة مقتل كليبر واحدة منها ٠٠

***

هناك ورقة صغيرة الحجم ، هى جزء من مذكرات رجل أدى دوره فى تطور الاحوال فى مصر فى الثلث الاول من القرن الماضى ٠ وهذه الورقة جديرة بالاهتمام ، لانها تشير الى ناحية ظلت مجهولة مهملة من حياة سليمان الحلبى السورى ، قاتل الجنرال كليبر الفرنسى ٠

كتب تلك الورقة الدكتور الطبيب جيباردو بك ، وهو واحد من أولئك الفرنسيين العديدين الذين انخرطوا فى خدمة الجيش المصرى ، فى خلال حكم محمد على القولى ، ورافقوا الحملة المصرية فى حروب الشام ، بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٠ ٠ وقد استوطنت أسرة هذا الطبيب الشرق العربى منذ ذلك الوقت ، فأقام فريق منها فى مصر ، وفريق فى لبنان ٠

وقد انتقلت مخلفات الدكتور جليباردو بك الى ابنه شارل جليباردو بك ، الذى أسس فى مصر متحفا دعاه « متحف بونابرت » ، وجمع فيه طائفة من الآثار والكتب المرتبطة ارتباطا وثيقا بتاريخ مصر ٠ والورقة التى نحن بصددها كانت فى حوزة مؤسس ذلك المتحف ٠ وقد مات الرجل وتناثرت محتويات متحفه فى الشرق والغرب ٠

وفيما يلى ترجمة تلك الصفحة من مذكرات الدكتور جليباردو بك ، وهى ترجمة حرفية لعباراتها الفرنسية :

« حدثني شيخ عربي من غزة ، يدعى أحمد الفوشي ، وهو يبلغ حوالي الثمانين من العمر ، عن الجيش الفرنسي عندما مر بغزة في طريقه الى عكاء بقيادة بونابرت. ومما قاله لي الفوشي : انه عرف سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر • وهو يدعي أن أسرته مرتبطة بقرابة بعيدة بأسرة الحلبي هذا . وقال : انه كان يحترف صناعة الاباريق وتجارة السمن مع والد سليمان بحلب • وأكد لي أن قاتل كليبر كان يحب فتاة من أسرة الفوشي، وانه كان ينوي اتخاذها زوجة له. والفتاة تدعى امينة. وكانت لا تزال صغيرة عندما اعتزم سليمان الزواج بها • فطلب اليه أبوها أن ينتظر سنتين لتبلغ الرابعة عشرة • فرضي سليمان • ولكن الفتاة فقدت ذات يوم — وكان ذلك في أثناء عودة الفرنسيين من عكاء بعد انكسارهم وانسحابهم من سورية . ولم يعرف أحد ماذا حل بها ، لانهم لم يعثروا لها على أثر فيما بعد • فهل غرقت في البحر ؟ أو ضاعت في الصحراء ؟ أو قتلت ؟ وقد حزن الحلبي على فقدها ، وكان حين ذاك في بلدة الخليل • وعندما أراد الاغوات الترك ارساله الى مصر لاغتيال كليبر ، لم يكتفوا بأن أغروه بالمال ، بل أدخلوا في روعه أيضا أن الفرنسيين هم الذين قتلوا أمينة التي كان يحبها ، بعد أن اعتدوا على عفافها وسلبوها شرفها. وأكد لي الشيخ الفوشي أن سليمان الحلبي ، عندما قيل له هذا ، أراد أن يقتل أول فرنسي يلتقي به ، ولكن الاغوات أقنعوه بأن قتل الفرنسي الاول في مصر هو خير انتقام لشرفه ، وللفتاة التي أحبها ، وللدين الذى يدين به ، فسافر الحلبي الى مصر وقتل كليبر» •

***

هذا كل ما جاء في الورقة الصغيرة من مذكرات الطبيب جلياردو بك . وقد كتبت في أثناء الحملة المصرية ، بين عام ۱۸۳۱ وعام ۱۸٤۲ ، أي بعد مرور ثلاثين سنة أو اربعين سنة على انسحاب الحملة الفرنسية من عكاء ، وسفر بونابرت من مصر ، وسقوط كليبر صريعا بضربات سليمان الحلبي !

واذا قارنا هذا ، بما حدث لشاب آخر يدعى عبد الملك شهيب تسلل الى سفينة فرنسية وقتل واحدا من جنودها كان قد اعتدى على أخته — واذا عرفنا أن عبد الملك شهيب هذا هو ابن خالة أحمد الوالي ، أحد الذين اشتركوا مع الحلبي واعدموا معه في « تل العقارب » ، واذا حسبنا حادث شهيب هذا كمقدمة لحادث الحلبي ، ودافع له على الانتقام لحبيبته كما انتقم شهيب لأخته — اذا أخذنا ذلك كله بعين الاعتبار ، وأضفنا اليه أن الاربعين قرشا التي تناولها الحلبي من الاغا أحمد التركي ليست بكافية

لتحمل رجلا على ركوب متن المخاطر من سورية الى مصر ، ليقتل الرجل الذى يشغل أعظم منصب فيها ، اذا فعلنا ذلك ، وأمعنا النظر فى السطور التى دونها جليباردو بك فى مذكراته ، اتضح لنا ان هناك عاملا آخر علاوة على العاملين القــومى والدينى : قــد دفع سليمان الحلبى الى ارتكاب جريمة القتل . . .

فهل انتقم الحلبى لنفسه وللمرأة التى كان قد عول على الزواج بها ، وفى آن واحد أرضى نزعته الوطنية ، وشعوره الدينى ؟

العوامل الثلاثة معقولة ، ومقبولة !

***

احتلال وجلاء

لكل أجل كتاب ! ولكل احتلال جلاء !

قضى الشيخ « طراف ابو غازى » ثلاثة أيام في « رشيد » يقايض التجار على ماكان يحمله من صوف وسمن وزبدة ، فعقد معهم بضع صفقات رابحة ، ثم اعتزم الرحيل في اليوم التالى عائدا الى أهله وعشيرته.

هو اعرابى من قبيلة « الحويطات » تزوج «صائبة» بنت الشيخ « حمود الفايز » من قبائل « ولد على » بالصحراء الغربية ، فرزق منها ثلاث بنات ، أكبرهن في الخامسة عشرة وأصغرهن في العاشرة وكان يملك ماشية عدة ينتقل بها مع بني قومه في حقول الوجه البحرى ومراعيه ، ويجنى من بيع لحومها وأصوافها وألبانها أرباحا طائلة . وما كانت صفقة رشيد التي عقدها في تلك الايام الثلاثة ، غير واحدة من عشرات الصفقات السنوية ، التي كان يعود بعدها الى قومه مثقلا بالهدايا ، عامر الجراب بالمـال !

لكن الاقدار شاءت ألا يعود الشيخ الى قبيلته ، بعد تلك الرحلة الموفقة الى رشيد ، فقد أفاق من نومه على أصوات المنادين ترتفع في الحوارى والازقة ، منبئة بان الانكليز سيداهمون المدينة بين لحظة وأخرى ، وبأن الحاكم يدعو السكان الى التزام السكينة ، والبقاء في بيوتهم ، وعدم التعرض للغزاة القادمين ، وانتظار أوامر جديدة تصدر منه !

وتساءل الناس ماذا حدث ، ومن أين أتى أولئك الاجانب وكيف وصلوا الى مدينتهم في غفلة من الحاميات المنتشرة على طول السـواحل المصرية . وعلموا ان ما حدث أمر في غاية الخطر !

مات زعيما المماليك في مصر : عثمان البرديسي ومحمد الالفي وخلا الميدان بموتهما لمحمد على فانصرف الى توحيد السلطة في يده ، وكانت أوروبا لمصر بالمرصاد . فجردت حكومة انكلترا حملة قوامها سبعة آلاف مقاتل لاحتلال وادى النيل . فوصلت الحملة بقيادة الجنرال فريزر أمام ميناء الاسكندرية في السابع عشر من شهر مارس سنة ١٨٠٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٢١ للهجرة ، ونزل الفاتحون في ضواحيها وضربوا عليها الحصار ثم أسرعوا في ارسال قوة الى مدينة «رشيد» لاحتلالها أيضا قبل أن تصل اليها النجدة من القاهرة ، وما دخل الانجليز المدينة حتى خيل اليهم

انها خاوية ، خالية من الجند والسكان ، فانتشروا فى جميع الجهات ، يغنون ويهتفون ، ويلقون سلاحهم جانبا مطمئنين مندهشين !

لكن الحاكم الداهية ـ على بك السلانكلى ـ عرف كيف يوقعهم فى الفخ الذى نصبه لهم !

وبينما هم فى فرح ومرح وقد ظنوا أنفسهم فى مأمن من كل خطر ، اذا بسطوح المنازل ونوافذها تمطرهم وابلا من القذائف الفاتكة ، واذا بالابواب تنفتح على الحوارى والازقة ويتدفق منها الى الخارج سيل من الجند والسكان والاعراب المسلحين ، فياخذون الانكليز على غرة ، ويذبحونهم ذبح الانعام حتى أبادوهم عن آخرهم . ثم يسوقون الاسرى ويرسلون رؤوس القتلى مع كوكبة من الفرسان الى القاهرة .

واستشهد فى تلك المعركة التحريرية بضع عشرات من السكان والعربان ، بينهم الشيخ طراف ابو غازى الحويطاتى الذى ابى الا أن يساهم فيها بنصيب !

❊❊❊

بلغ خبر مصرع الشيخ مسامع زوجته وبناته فخرجن وقد حللن الشعور وخضبن الايدى والوجوه بالرماد ، وانتضين السيوف ورفعن العقائر صائحات : « يالثارات العرب ! » وتجاوبت الاصوات هادرة متماوجة سابحة من مضرب الى مضرب ، ومن حى الى حى ، واقبل العربان من كل ناحية وصوب ، وقدلعت فى اكفهم النصال ، وغلت الدماء فى عروقهم لهذا العدوان المزدوج الذى وقع على شيخ العشيرة ومرابع الحمى ، فالتفوا حول صائبة وبناتها ، ملبين النداء ، مسارعين الى الفداء !

❊❊❊

وكان جيش مصرى صغير قد اتجه مسرعا من القاهرة الى الساحل المصرى المهدد ، فانضم اليه فى الطريق كل قادر على حمل السلاح ، وكان الانكليز فى الوقت نفسه قد جردوا حملة أخرى غادرت الاسكندرية فى طريقها الى رشيد لمحو الهزيمة المنكرة ، فاذا هم يضيفون اليها هزيمة جديدة !

ففى الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، وهو اليوم الذى سلمت فيه الاسكندرية الى الجنرال «فريزر» وقع اصطدام بين الجيش المصرى والحملة الانكليزية بقيادة الجنرال « ستيوارت » على مقربة من رشيد ، فتراجع الانكليز متقهقرين الى «الحماد» حيث حاولوا الاعتصام فى التلال والصمود امام الجيش المصرى ، ولكن المصريين لحقوا بهم الى

ذلك الميدان ، حيث اشتبكت القوتان فى الثلاثين من شهر مارس فى عراك لم يدم طويلا ، فانسحب ستيوارت وجد فى السير نحو الاسكندرية طلبا للنجاة من مصير ادرك انه لن يختلف عن مصير الحملة السابقة !

وانطلق العربان فى أثر الجيش المنسحب تتقدمهم صائبة وبناتها ، طلبا لثأر الشيخ القتيل وانتقاما للحمى المستباح ، فتم لهم ما أرادوا ، فى اسرع مما كانوا يظنون !

أما الجيش المصرى فقد واصل الزحف الى الاسكندرية حيث امتنع الانجليز عن منازلته ، ودخلوا فى مفاوضات أسفرت عن جلائهم التام ، وبلا قيد ولا شرط !

الشاهد!

ثار ابنها لزوجها ، فنصبت شاهدا على قبر الفقيد وخضبته بالدم !

أصدر السلطان العثماني محمود الثاني ارادة سنية بتعيين حسين باشا قائدا عاما للجيوش العثمانية في الأناضول ، وأنعم عليه بلقب «سردار اكرم » وزوده بالأوامر ، والذخائر والمؤن ، وتمنى له التوفيق في وقف زحف المصريين القادمين بطريق حمص ، بعد أن استولوا على الجزء الأكبر من سورية ·

كان حسين باشا من رجال السلطان الأخصاء والمقربين اليه الأمناء · يشهد له الجميع بالاقدام والذكاء واصالة الرأى · وقد ساعدته الظروف فاثبت ولاءه للسلطان في مناسبات عدة · وهو الذى اعتمد عليه محمود الثاني الاعتماد كله ، في التخلص من جنود «الانكشارية» وابادتهم ، لما تفاقم شرهم وأصبحوا خطرا على العرش بدل أن يكونوا حراسه ·

سار حسين باشا على رأس جيشه قاصدا الى حمص ، حيث كان يعتصم زميله محمد باشا · ولكنه قطع المراحل بين عاصمة السلطنة وتخوم الولاية السورية ببطء ، ظنا منه أن الجيش المصرى من ناحيته لن يجرؤ على مواصلة السير ومهاجمة المدينة المحصنة ·

ووصل « سردار اكرم » الى أنطاكية · فاستراح فيها قليلا ثم استأنف السير الى حمص · وما وصل الى جسر « السغر » القريب منها حتى التقى بفلول الفارين من جيش زميله محمد باشا · فعلم منهم انهم هزموا في معركة دامية دارت رحاها حول المدينة · فاضطر الرجل الى العودة على اعقابه أمل أن يعتصم في حلب ، وينتظر قدوم المصريين المنتصرين اليها ·

لكن سكان المدينة أوصدوا أبوابها في وجهه ، ولم يدخلوا اليها غير الجرحى والمرضى والمصابين من الجنود ، قائلين للقائد العثماني : «لك أن تنازل المصريين خارج الاسوار · فاذا تغلبت عليهم فتحنا لك أبواب المدينة · أما اذا لذت بالفرار كمن سبقوك من القواد ، فاننا نستودعك الله من الآن ، ونرحب مهللين مكبرين ، بقدوم المصريين ! »

وكان الجيش المصرى في أثناء ذلك يجد في مطاردة عدوه ، ولا يترك له فرصة لجمع جموعه من جديد · فلم ير حسين باشا بدا من الانسحاب الى موقع يستطيع فيه الثبات امام المنتصرين الزاحفين · فأسرع الى مضيق

« بيلان » تاركا خيامه عند أبواب حلب ، وكمية كبيرة من ذخائره ومؤنه ومدافعه ٠

وفى الخامس عشر من شهر يوليو عام ١٨٣٢ ، للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٤٧ للهجرة ، دخل الجيش المصرى حلب الشهباء ، فاحتلها بلا قتال ونصب مضاربه حولها ، وأقام فيها حامية قوية ٠

***

بعد بضعة أيام ، عقدت في المدينة محكمة عسكرية للنظر فى الشكايات التى عرضت على القيادة فى الأيام السابقة ٠ وكان بين الذين جىء بهم أمام المحكمة جندى يدعى « اسماعيل الجرجاوى » ٠

انه متهم بقتل زميل له ، بعد معركة حمص ٠ فقد انقض عليه فجأة ، واطبق على عنقه بأصابع يديه ، فأخمد أنفاسه قبل أن يتمكن أحد من شهود الحادث من انقاذه ٠

لم يكن ينكر الرجل أنه قتل ٠ ولكنه أنكر أن توصف فعلته بأنها جريمة !

تكلم بدون أن يتلعثم لسانه ، أو يبدو عليه أى اضطراب ، أو تخرج من فمه كلمة ندامة على ما فعل !

قتل أخذا بالثأر . والثأر فى عرف القوم الذين ينتمى اليهم فضيلة واجبة !

فاسماعيل الجرجاوى من عرب « الهوارة » تلك العشائر التى نزح أجدادها من الصحراء الغربية الى صعيد مصر حيث طابت لهم الاقامة ، فحطوا رحالهم فى وادى النيل ٠ لكن تقاليدهم الموروثة ظلت فى نفوسهم حية مرعية ٠ وقد غرسوها فى ذلك الصعيد كما غرسوا فيه أطناب الخيام ٠

فاسماعيل الجرجاوى رجل من أولئك العربان الذين لا ينامون على ضيم ولا يسكتون عن دم مطلول ٠ فقد يثأر الواحد منهم لقتيل بعد أيام او شهور أو أعوام ٠ وهذه العادة قد امتزجت بدمائهم وهم لا يحاولون انتزاعها ٠ والابناء يتوارثونها عن الآباء ٠ والاحجام عن الأخذ بالثأر يعد فى نظرهم عارا لا عار بعده ، وجبنا يستحق من يصم نفسه به أن يوليه القوم ظهورهم امتهانا واحتقارا !

قص الرجل القاتل قصته ، فقال :

ـ قتل أبى منذ ثمانية أعوام ٠ وكنت حين ذاك فى الثالثة عشرة من عمرى ، ضعيف البنية ، مريضا ، لا ادرك الاخذ بالثأر ممنى ، ولا اقيم

للتقاليد الموروثة وزنا • وبقيت بعد قتل أبي وحيد أمي ؛ التي لم يكن لها في القرية معين ولا نصير • فجعلت تبث في داعي الثأر وترعى صحتي بعنايتها ، وتسهر على راحتي ونشأتي • فترعرعت في كنفها ، وكان الله عز وجل قد أراد أن يستجيب دعاء تلك الوالدة الثكلى ، ويجعل مني أداة للانتقام من القاتل الاثيم ، فكنت أستعيد قواي شيئا فشيئا ، وأشعر مع الايام بأن واجبا عظيما قد فرض على القيام به • وأدركت بين حين أن ابناء العشيرة ينظرون الينا — والدتي وأنا — نظرهم الى من ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وخيم عليهم العار ، وطبعهم الجبن بطابعه . ولما بلغت العشرين من العمر ، خاطبتني أمي قائلة : « لقد حان الوقت وأذنت الساعة الرهيبة يا بني • انني أعرف القاتل الذي سفك دم أبيك ، وجعلنا سخرية بين الناس وهدفا لازدرائهم • ان القاتل يمرح الآن حرا طليقا ، في حين أن جثة أبيك المسكين ترقد تحت الرمس ، هناك ، طعمة للحشرات ، دون أن يقوم على القبر « شاهد » أو تذبح عنده ذبيحة ! ولن تستطيع أن تفعل ذلك، الا اذا انتقمت لأبيك من قاتله ، وثأرت له ثأرا دمويا ، يمحو العار الذي يكتنفنا . ويمكننا من النظر الى الناس وجها لوجه بلا خوف ولا وجل ! اذهب يا بني ولا تعد الا ويدك مخضبة بدم ذلك القاتل الجبان ! أما اذا لقيت حتفك ، فانني أقضي بقية أيامي هنا ، في البكاء والنحيب ! » هذا ما قالته لي أمي • فاقسمت لها انني سأثأر لأبي • وأسرعت في طلب الغريم ، فعلمت أنه جندي في المدفعية ، وأن فرقته مع الجيش الذاهب الى الحرب . قلت في نفسي « لو احجمت عن اللحــاق به ، لافلت مني الثأر وضاع على الانتقام • ومنذ ذلك الوقت ، صحت عزيمتي على التطوع في الجيش ، لا حبا للحرب فقط ، حيث أجد السلوى التي أتوق اليها ، بل أيضا سعيا وراء الثأر الذي أنشده ، والترضية التي أرغب فيها • لقد حاربت واستبسلت في القتال ، وما تنحيت يوما عن مواطن الخطر ، أو وليت مدبرا في الاوقات العصيبة • لقد قمت بواجبي كجندي • وعندما حان الوقت للقيام بواجبي كابن بار بابيه ، لم أحجم عن ذلك ، بل انتهزت الفرصة ، وقتلت قاتل أبي ، ورويت ظمئي من دمه • بحثت عنه طويلا حتى اهتديت اليه . ولم أشأ ان ألحق به أذى في مستهل المعركة ، بل انتظرت الى نهايتها ، وتركته يقوم بواجبه بين رفاقه ورجال المدفعية . وبعد ما انتهى كل شيء ، وانهزم العدو أمامنا . ودخلنا مدينة حمص منتصرين ، وثبت به ، وقبضت على عنقه . وانتزعت روحه انتزاعا !

***

صدر الحكم باعدام اسماعيل الجرجاوي • وتقبله الرجل رابط الجأش رافع الرأس • ولكنه ، لما سئل اذا كان لديه شيء آخر يقوله . أجاب بصوت هادىء لا تهدج فيه ولا ارتعاش :

ـ لم تقم أمي مأتما بعد مصرع أبى • فكل ما أرجوه الآن أن يصلها خبرى •• فتعلم أننى قد ثأرت لأبى من قاتله ، وتقيم فى البيت مأتما ، وتنصب على قبر الميت شاهدا ، وتذبح عليه الذبيحة الأولى ، وتخضب الشاهد بدمها !

ولما قيل ان رغبته ستحقق ، أردف أيضا قائلا :

ـ ان الجيش يستعد لخوض معركة اخرى ، غدا أو بعد غد أو بعد أيام • وأنا الآن أقسم بالله ، وبدم أبى الذى ثأرت له ، أننى لا أعلل النفس الا بامنية واحدة ، وهى الا اعدم كقاتل ، بل تعطى لى الفرصة لكى أخوض غمار القتال مع رفاقى ، وأسقط فى الميدان !

واجيب اسماعيل الجرجاوى الى طلبه ، واعطيت له الفرصة ليحقق أمنيته !

***

فى اليوم الثانى من شهر ربيع الاول سنة ١٢٤٨ هجرية ، الموافق لليوم التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٣٢ ميلادية ـ كان الجيش المصرى فى مضيق « بيلان » الذى تسلكه القوافل بين الاسكندرونة وحلب •

معقل منيع وحسن حصين وممر الغزاة الفاتحين على مر الاجيال • رات هضابه الشماء جحافلهم ، وسمعت صخوره الصماء وقع حوافر خيولهم ، منذ أن عرف التاريخ • ففى ذلك المضيق مر الأشوريون والبابليون والفراعنة والفرس والاسكندر والصليبيون ! والمصريون يسلكون الطريق الذى سلكه هؤلاء •

ستون الفا من الاتراك ربضوا فى ذلك المعقل الحصين ، ومعهم مائة وستون مدفعا ، فى انتظار الجيش الزاحف .

لكن نظامهم مختل ، وادارة جيشهم رديئة ، والقوة المعنوية معدومة فى نفوس الجنود ، بخلاف ما كان عليه الجيش المصرى •

أهملت القيادة التركية احتلال بعض المرتفعات المشرفة على السهل ، فاستغلت القيادة المصرية هذا الخطأ •

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، صدر الأمر بالهجوم •

وحشدت القيادة التركية معظم قواتها فى القلب ، وتركت جناحيها فى حالة ضعف بين ، اعتقادا منها أن القيادة المصرية ستهاجم القلب دون الجناحين ، على حسب ما تبين لها من الظواهر والبوادر !

لكن القيادة المصرية شطرت الجيش شطرين ، فقام أحدهما بهجوم

عنيف على قلب الجيش التركى ، والتف الشطر الثانى حوله ، فأحاطه بدائرة من حديد ونار ، وقطع عليه خط الرجعة من جهة بر الاناضول .

وبعد ساعتين فقط ، تضعضع الجيش التركى واضطربت صفوفه ، فضاعف المصريون نيرانهم ٠ وما أقبلت الشمس على المغيب ، حتى كان جنود « السردار أكرم » يولون وجوههم شطر الساحل ، ويفرون من الميدان زرافات ووحدانا ، على أمل أن يصلوا الى الاسكندرونة ، ويحتموا بالاسطول القادم اليها من الاستانة !

وخسروا فى تلك الموقعة خسارة جسيمة ، وتركوا بين أيدى المصريين أكداسا مكدسة من الاسلاب والغنائم !

وفر حسين باشا كغيره من الضباط والجنود ٠ ومنذ ذلك الوقت لم يقف له أحد على أثر ٠ ويقال ان جنوده قد فتكوا به فى الطريق ، طمعا فى الاستيلاء على ما كان يحمله معه من أموال ٠

أما الجيش المنهزم ، فقد تفرق فى وهاد الاناضول وبطاحه ٠ وفى ٣٠ من يولية عام ١٨٣٢ دخل المصريون ثغر الاسكندرونة ، واستولوا على المراكب السبعة التى أرسلها السلطان لنجدة سرداره !

***

وبر الجندى اسماعيل الجرجاوى بالعهد الذى قطعه على نفسه ٠ فقد حارب بشجاعة واقدام ٠ ولما صدر الأمر للمشاة بمهاجمة المدفعية التركية ، وثب اسماعيل فى مقدمة الصفوف ، واقتحم المعاقل ، وسقط صريعا فى الطليعة !

وأرسلوا خبره الى أمه وأطلعوها على كل ما حدث ٠٠

فبكت المسكينة ابنها بعد ما بكت زوجها ٠ لكنها أسرعت الى قبر القتيل فى جبانة القرية ، ونصبت عليه شاهدا ، وذبحت ذبيحة اغترفت من دمائها وخضبت بها الشاهد ، ثم أقامت حول القبر مأتما اشترك فيه أبناء العشيرة كبيرهم وصغيرهم !

وكانت المرأة تتقبل منهم التعزية ، رافعة الرأس ، فخورة بابنها ، الذى مات ولم يترك وراءه ثأرا مهملا ، وشرفا مثلوما ، وعارا مقيما !

عمر المصرى

ما أغرب الزمن الذى كان فيه الناس يشعلون نار الفتنة دفاعا عن الطرابيش !

قضى « بكر المنياوى » ليلته الاولى ، بعد خروجه من القاهرة المحروسة ، فى خان يؤمه العربان وتحط فيه القوافل رحالها ببلدة البدرشين ، فى ذهابها واوبتها بين العاصمة المصرية ومدن الوجه القبلى. ونهض مبكرا فى صباح اليوم التالى لاستئناف السير الى المنيا . وكانت تصحبه فى تلك الرحلة زوجته المعروفة فى المدن والاقاليم باسم « سكينة البدوية » البارعة فى معالجة الجراح بما تستخرجه من خواص الاعشاب والازهار ..

وكان « بكر المنياوى » اعرابيا من قبيلة « الجوازى » الضاربة فى اقليمى المنيا والفيوم ، المشهورة بالفروسية وتربية الخيول الاصيلة ، وتوريد الجمال والماشية لأهل المدن على طول مجرى النيل . وكانت مهنة « بكر » التوسط بين الموردين والمستوردين ، مما جعله كثير الاسفار دائم التنقل من مكان الى مكان .. واما « سكينة » فاعرابية مثله ، تنتمى الى احد بطون « اولاد على » الكثيرة ، فى الصحراء الغربية . وقد تزوجها « بكر » فى احدى رحلاته الى برقة ، ووجد فيها خير رفيق فى حياته ، وخير معين فى عمله

لم يدر حديث الزوجين فى ذلك اليوم ، وهما عائدان من القاهرة وقد استوى كل منهما على ظهر ناقته ، حول رحلة جديدة يفكران فيها ، او صفقة رابحة يسعيان اليها . بل كان حديثهما فى هذه المرة منصبا على موضوع لم يطرقاه من قبل ، وعلى امر خطير يتوقف عليه مصير قومهما ومستقبل اسرتهما ..

قال بكر بصوت عميق متهدج :

ـ اننى اوجس خيفة يا سكينة .. اوجس خيفة من عواقب هذه المغامرة التى ارى قومنا مسوقين اليها بدافع من الاقدار .. ومما يدعو الى الاسف ، ان الحكام فى القاهرة لم يأخذوا بعين الاعتبار مبلغ تأصل التقاليد فى نفوس العربان ، ومقدار تمسكهم بما توارثوه من عادات وشمائل ابا عن جد من قديم الزمان !

فاقرته « سكينة » على رأيه . واضافت قائلة :

ـ علينا ان ننبه القوم الى مايدبر لهم . وان نطلعهم على ماسمعنا ورأينا فى القاهرة . وعليهم أن يعدوا للمفاجآت عدتها ، وان يتخذوا للغد حيطته ..!

ماذا سمع الزوجان ، وماذا رايا فى القاهرة ؟

***

كان الحكم قد آل الى محمد سعيد . اصغر ابناء محمد على ، منذ سنة ١٨٥٤ . وكان الوالى الجديد بخلاف سلفه وابن اخيه « عباس الاول » ، يقول بانه يرغب فى اعادة مجد الجيش المصرى الى سالف عهده ، وتنظيمه على اسس وقواعد تتفق مع مقتضيات العصر ...

كان الجيش المصرى قد تطرق اليه الانحلال والضعف فى السنوات السابقة ، فعمد محمد سعيد الى زيادة عدده ، وفكر فى استخدام القبائل العربية الضاربة فى أقاليم مصر وعلى الحدود ، وكانت قبيلة الجوازى النازلة فى اقليمى المنيا والفيوم ، اول قبيلة اتجهت اليها انظار الوالى لتحقيق هذا الغرض . فدارت بينه وبين زعيمها « عمر المصرى » ـ او « عمار المصرى » بلهجة ابناء البادية ـ مفاوضات تولاها فريق من ضباط الجيش الشراكسة والترك . وتم الاتفاق بين الحكومة وشيوخ القبيلة على جميع شروط التعاون ما عدا شرطين اثنين : ان يكون التجنيد اختياريا لا اجباريا ، وان يظل المجندون من رجال القبائل محتفظين بزيهم العربى ، وعلى الخصوص بطربوشهم المغربى ذى الزر الضخم الطويل !

ونشب الخلاف حول هذين الشرطين ، فوافق الوالى على الشرط الاول الخاص بطريقة التجنيد ، ولكنه رفض الشرط الثانى وأصر على ان يرتدى العربان المجندون زى العساكر المصريين ، رغبة منه فى توحيد الزى وعدم التفريق بين العناصر التى يتألف منها الجيش الجديد ..

واصر « عمر المصرى » من ناحيته على ان يحتفظ بنو قومه بزيهم وطربوشهم . وانقطعت المفاوضات بين الفريقين !

وكان الضباط الشراكسة والترك فى الجيش لا ينظرون بعين الارتياح الى اهتمام الوالى بامر العربان ورغبته فى ارضائهم ، وميله الى معاملتهم معاملة خاصة فراحوا يوغرون صدره على « عمر المصرى » وجماعته ، ويضغطون عليه ليقابل مطالبهم بالشدة والعنف . فنجحوا فى مساعيهم ، وقرر محمد سعيد تجريد حملة على عربان المنيا والفيوم لتأديبهم وارغامهم على الرضوخ لارادته بلا قيد ولا شرط !

وفكر الضباط انصار العنف والشدة فى استخدام فريق من العربان فى محاربة الفريق الآخر ، فأوفدوا الرسل الى قبائل « اولاد على » فى الصحراء الغربية ، ونجح اولئك الرسل فى اقناع بعض العشائر بالالتحاق بالحملة ومهاجمة « الجوازى » من الخلف ! وقامت الاستعدادات فى القاهرة لتشكيل القوة المحاربة وارسالها فى اقرب وقت الى الاقليمين العاصيين ..

***

هذا ما وصل الى علم « بكر المنياوى » وزوجته فى أثناء اقامتهما بالعاصمة ، وقد هالهما ان تعد العدة للبطش بقبيلتهما وهى عن الخطة لاهية ، وان يلاقى المحرضون على القتال عونا من قبيلة عربية أخرى ، تربطها بقبيلة الجوازى روابط الجوار والرحم والقربى !

وعاد الزوجان مسرعين الى ديار قومهما ، لاطلاعهم على مابلغ مسامعهما ، ووقع عليه نظرهما ، ولانذارهم بوجوب التأهب لدرء الخطر الداهم !

تنادى العربان وتصارخوا الى القتال قبل ان تتحرك القوة الزاحفة عليهم من قواعدها بالقاهرة والجيزة . وهرع الى السلاح كل قادر على حمله من رجال « الجوازى » ونسائهم ، واستنجد القوم بالعشائر المجاورة فانجدتهم بما تيسر لها من فرسان وهجانة وذخيرة وزاد وتولى قيادة الثائرين بطلهم المغوار وزعيمهم المحنك ، « عمر المصرى » الشهير بعمار ..

وفاجأت الحملة العسكرية جموع العربان فى طريق الواحات البحرية ، ودارت المناوشات بين الفريقين متقطعة متفرقة ، حتى اشتبكا أخيرا فى معركة بواقعة « بلاط » حيث اطبق الجيش على الثوار من كل صوب ، بعد ما وافته الى ذلك المكان القوة التى أنجدته بها عشائر «أولاد على» ، فأخذ العربان بين نارين ، بل بين اربع نيران . وبعد قتال دام بضع ساعات ، شعر « عمر المصرى » بأن الدائرة دائرة عليه ، وان رجاله لن يقووا على الصمود امام جيش يفوقهم عددا وعدة وذخيرة ، وان استبسالهم فى القتال لن يجديهم نفعا .. وادرك الزعيم الشجاع ان الحظ يخونه ، وانه سيقضى عليه وعلى قومه ، فأوشك أن يصدر اليهم امره بالتراجع والانطلاق فى الصحراء الواسعة !

وفجأة ، علت صرخة من احدى جهات الميدان ، واعقبها هرج ومرج ، واضطربت صفوف العساكر وارتفعت سحب من الغبار جعلت تبتعد نحو الشمال ، وسمعت اصوات تصيح : « اولاد على ! اولاد على ! »

وانقلب القتال من حال الى حال !

ان الحرب أحيانا خدعة أكثر مما هي شجاعة واقدام . وقد عمد « الجوازى » في تلك المعركة الى خـدعة انقـذتهم من الهلاك ، وغيرت مجرى القتال في حومته ونفذت تلك الخدعة على يد « بكر المنياوى » وزوجته سكينة البدوية ..!

فقد هرعت المراة الى بنى قومها « اولاد على » يصحبها زوجها ، وصاحت بهم : « متى كان العربان يقاتلون العربان ؟ ومتى كان البدوى يطعن اخاه البدوى فى ظهره ، على حين يتلقى طعنات المهاجمين بصدره؟ ومتى كانت المصاهرة بين العشائر تؤدى الى خيانة الدم والخروج على التقاليد ؟ الا كفوا عن القتال يا ولد على ، فالدم الذى تهرقونه دمكم، والمضارب التى تهـدمون رواقها ، والبيوت التى تخلعـون اطنـابها ، مضاربكم وبيوتكم ! »

وقال بكر المنياوى : « ان الضـباط الأتراك والشراكسة يسرهم ان يقتتل العرب فيما بينهم ، وان يفتك الجنود المصريون ابناءالفلاحين بمواطنيهم من أبناء العشائر ! فلا تقعوا فى المصيدة ! »

وواصلت المراة انطلاقها بين الصفوف صائحة ايضا : « اننا نقاتل فى سبيل هذه البرانس التىتلتحفون بها ، وهذه الطرابيش التىتزينون بها رءوسكم ! »

وتشـاور شـيوخ « أولاد على » فيمـا بينهم ، وقـر رأيهم على الانسحاب من المعركة ، لانه لا يليق بهم ان يقاتلوا عربانا مثلهم ...

وفتح انسحابهم ثغرة فى جبهة الجيش ، فصدرت اليه الاوامر بالارتداد ، وظل « عمر المصرى » ورجاله اسياد الميدان فى تلكالمعركة!

وارتفعت وسط الضجيج وقرقعة الســلاح ، زغاريد البدويات الفرحات المهللات ، وكانت « سكينة » زوجة « بكر المنياوى » فىطليعة المزغردات !

ولكن فرحتها فى ذلك اليوم لم تتم على اكمل وجه . بل شاءت الاقدار ان تنغص على المراة الباسـلة تكبيرها وتهليلها : فقد سـقط « بكر المنياوى » قتيلا فى حومة الوغى بطعنة فارس شركسى، وعجزت زوجته الطبيبة المداوية عن انقاذ حياته ، بالرغم مما بذلته من عناية وتفننت فى ابتكاره من عقاقير ، فان مهارتها قد خانتها فى ذلك اليـوم الذى كانت فيه اشد ما تكون حاجة اليها ، لكى تنتزع من مخالبالموت اعز انسـان عليها فى الوجود ..

وبعد أن زغردت النساء للنصر ، انصرفن الى ندب القتلى ومواساة الجرحى . وبكت « سكينة البدوية » زوجها وعولت منذ تلك اللحظة على الرحيل عائدة الى قومها ..

وابى « عمر المصرى » الا ان يشيد بفضل المراة الباسلة على مرأى ومسمع من القوم ، فالتف شيوخ العشائر حوله ، ورفعوا سيوفهم لتحية البدوية التى كان العمل الذى أقدمت عليه عاملا من عوامل انتصارهم

تلك قصة الطرابيش المغربية ذات الازرار الطويلة الضخمة، وتلك قصة انسحاب عشائر « اولاد على » من معركة « بلاط » فى أوائل عهد محمد سعيد

وكان لهذه القصة المزدوجة حواش وذيول !

فقد رحل « عمر المصرى » عن ديار القبيلة بفريق من رجالها ونسائها ، ونزل فى الصحراء الغربية فى باطن برقة ، حيث صاهر العشائر الضاربة فى تلك الانحاء

والغريب فى رحيل ذلك الزعيم البدوى عن دياره ، ونزوحه عن موطنه ، انه لم ينزح بسبب انهزامه فى معركة ، بل بسبب انتصاره فيها ! فعمر المصرى من ارومة نجدية ، والتقاليد التى ورثها عن اجداده النجديين تقضى بأن يرحل الغالب عن البقاع التى كتبت له فيها الغلبة فى الحروب ! ولا تزال هذه العادة حية معمولا بها عند كثير من العشائر العربية فى جزيرة العرب وسيناء والصحراء الغربية والشمال الافريقى : وهذا ما فعله « عمر المصرى » بعد واقعة « بلاط » !

وبقى الرجل مقيما فى برقة الى سنة ١٨٦٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٧٩ للهجرة . أوفدت الحكومة المصرية الرسل لاستدعائه ورفاقه ، فلبوا الدعوة وعادوا الى مصر ، حيث عهد اليهم بحراسة الحدود الغربية ، مع بقاء ما كانوا يتمسكون به من امتيازات ــ وفى مقدمتها الاحتفاظ بزيهم البدوى ، وطربوشهم المغربى !

وكان عمر المصرى ــ الذى تولى من جديد زعامة قومه فى عهد اسماعيل ــ يقول فى كل مناسبة : « ما كنا لصوصا ، وما كنا أشرارا، وما كنا باغين ! ولكن وسطاء السوء هم الذين سببوا الفتنة ، فى حين اننا كنا فى ظرف ووقت وحال سيوفا مرهفة ، ورماحا مشرعة ، فى خدمة مصر واعلاء شأنها ! »

ولم يكن عمر المصرى ــ او عمار المصرى ــ مخطئا او مبالغا فيماذهب اليه : فقد مشى عربان مصر مع ابناء مدنها وقراها وحقولها جنبا الى

جنب فى الحروب والغزوات ، وبذلوا مثلهم الدماء والارواح ، فى ربوع الشام وجبال لبنان ، وفى ربى نجد وصحارى الحجاز ، وفى هضـاب فلسطين وسهول السودان ، حيث تضم مقبرة واحدة فى بلدة «شندى» رفات نجـل عمر المصرى ومئات آخـرين من رفاقه عربان الجـوازى ، الذين سقطوا فى الميدان من أجل مصر ووحدة وادي النيل !

اما حادثة « بلاط » فانها لم تكن ثورة بالمعنى المقصود من هذه الكلمـة ، كما وصفها بعض المؤرخين ، ولم يكن الغـرض منها السلب والنهب والخروج على السلطة الشرعية فى البلاد كما ادعوا ، بل كانت مظهرا من مظاهر سياسة الدس والكيد ، العزيزة على النفوس فى ذلك الوقت !

ثأر في الصعيد

علادة طلب الثار من اشــد العادات رســوخا فى
النفوس وزوالها يسير ببطء غير ملموس !

نهض رمضـان عبدالكريم فى ذلك اليـوم مبكرا ، واسرعت اليه زوجته زينب فقدمت له الطعام ، وجاءته بكيس من الجلد ملأته ثيابا وزادا ، وودعت زوجها بهذه الكلمات :

ـ سر على بركة الله يا رمضان ، ولتكن غيبتك عنا قصيرة المدى!

فأجابها الرجل :

ـ لن اعود يا زينب قبل مضى خمسـة او سـتة اشهر . فقد تم الاتفاق بينى وبين اولئك الافرنج الذين تعـاقدت معهم ، على القيـام بمهمتى الى النهاية ، وعدم التخلى عنهم قبل ان تنتهى اعمـال الحفر والتنقيب التى يقومون بها ..

وودع رمضان زوجته ، فبكت ولكنها مسحت دموعهـا وتمالكت نفسها وتظاهرت أمامه بالصبر والجلد ، ثم خطر لها خاطر فقـالت :

ـ الا تودع « هدى » قبل رحيلك ؟

فابتسم الرجل ، ونظر الى زوجته نظرة حب وهيام ، واجاب على سؤالها قائلا :

ـ تعلمين يا زينب اننى لا ارفض لك طلبـا ، ولا سيما اذا كان ذلك الطلب يتعلق بابنتك « هدى » فاين هى ؟

فنادت زينب ابنتها هدى وابتعد رمضان عبد الكريم بعد ان ودع زوجته وابنتها ..

***

كان محمد سعيد والى مصر قد عين فىذلك الوقت العالمالفرنسى «ماريت» مديرا لمصلحة الآثار المصرية ، واطلق يده فى اعمـال الحفـر والتنقيب وكشـف الهياكل والمعابد الفرعونية ، فاستخدم الرجل فى تنفيذ خطته الواسعة النطاق جماعات من العمـال والصبيان ، ورفعت الاتربة والرمال عن طائفة من الآثار القيمـة ، فى الجيزة وادفو ودندرة والكرنك والاقصر وغيرها من الاماكن المعـروفة المشـهورة ، التى كان

المصريون الأقدمون يقيمون فيها شعائر دينهم ويبسطون منها على وادى النيل سلطانهم ..

وفى شهر يوليه سنة ١٨٥٨ ، عرض احد الرسل الذين كان ماريت الفرنسي يعهد اليهم فى اختيار الادلاء ، على رمضان عبد الكريم من اهالى « طهطا » ان يدخل فى خدمة مصلحة الآثار ويضع نفسه تحت تصرف مديرها ، مقابل أجر لايستهان به .

فرضى رمضان عبدالكريم الطهطاوى وودع زوجته وابنة زوجته، والتحق باحدى البعثات التى اوفدها ماريت الى اطراف الصعيد ..

***

وفى اليوم التالى ، قالت الفتاة لأمها

ـ اماه . اننى ارغب اليك اليوم فى أمر لا اخالك الا راضية به مجيبتى اليه . اننى اذهب فى كل اسبوع مرة الى جبانة البلد ، حيث قبر والدى ، وفى كل مرة ترفضين الذهاب معى لزيارة ذلك القبر ، الذى يضم رفات زوجك الاول ، بحجة ان زوجك الثانى تزعجه هذه الزيارة . أما اليوم ، فان عمى رمضان غائب عن البلد ، لبضعة اشهر كما اكد لك قبل رحيله . فهل لك أن تزورى معى قبر ذلك الراحل العزيز ، ولو مرة واحدة فى العمر ؟

فسكتت زينب ، واشاحت بوجهها كيلا يلتقى نظرها بنظر الصبية وقالت :

ـ لك ما تريدين يا ابنتى . فلنذهب لزيارة قبر فواز رحمة الله عليه !

وخرجت المرأة وابنتها من البيت ، وقصدتا الى جبانة طهطا ، حيث وزعت هدى الصدقات على الفقراء والمساكين ، ومكثت مع أمها ساعات ، على قبر ذلك الرجل الذى عرفته صغيرة ، ولا تزال تذكر صورته المرسومة فى اعماق فؤادها ، والذى لم تحب أحدا سواه منذ ان بدأ قلبها يخفق بمختلف العواطف والشعور !

وجلست زينب بالقرب منها ، صامتة لا تفوه بكلمة ، والدموع تنحدر متقطعة من عينيها ، والذكريات البعيدة تتلاطم فى راسها ..

وبينما هما على تلك الحالة ، اذا بجارهما الشيخ صالح ، يقترب منهما ويحييهما ، ثم يضع يده على كتف المرأة ويقول بصوته الهادىء العميق :

ـ زينب . عودى الى بيتك . فلا يجب ان يعلم رمضان انك

اتيت الى هذا المكان مع ابنتك هدى . انصرف . اما هذه الفتاة ، فانها تبقى هنا ساعة أخرى ، ثم تلحق بك ؛ وسألازمها الى عتبة الباب !

* * *

بقى الشيخ صالح مع الفتاة هدى امام قبر فواز ، وبعد أن غابت الام عن الانظار ، وتوارت وراء الاشجار ، جلس الشيخ بجانب هدى، وقال :

ــ اصغى الى يابنتى ، فان ماأريد الافضاء به اليك الآن لعلى جانب عظيم من الاهمية ولكنى اقسمت منذ عشر سنوات ان أبر بالعهد الذى قطعته على نفسى عندما تبلغين الخامسة عشرة من العمر . وقد بلغتها منذ اربعة ايام يا هدى !

فقاطعته الفتاة قائلة :

ــ صدقت يا شيخ صالح . فقد بلغت الخامسة عشرة من العمر منذ اربعة ايام فقط . وقد مرت على موت أبى عشرة اعوام كاملة !

فاستطرد الشيخ قائلا :

ــ وسأحدثك الآن عن ابيك رحمه الله ! ولكن ارجو منك يابنتى ان تصغى الى دون ان تقطعى الحديث على فاسمعى :

« كان والدك فواز الشاعر صديقى الحميم . فقد ربيت معه فى بيت جدك ونحن كما تعلمين من عرب الهوارة . وقد تجهلين لماذا نعرف بهذا الاسم . فاعلمى اذن ان قبائل من العرب ، بقيادة الفاتح العظيم موسى بن نصير ، نزلت فى قطر اسمه « هوارة » من اعمال طرابلس ، فعرفت منذ ذلك الوقت « بعرب الهوارة » ثم حدث نزاع بين القوم وبين قبائل عربية اخرى ، فنزحوا الى مصر مع جماعات من احلافهم البربر ، وحطوا رحالهم فى هذه المنطقة الخصبة ، واستوطنوا هذه الديار حيث يعرفون الى الآن باسم عرب الهوارة او عرب الغرب، لانهم وفدوا على مصر من الجهة الغربية ، فى حين ان القبائل التى وفدت على مصر من جزيرة العرب ، اى من الجهة الشرقية ، يعرفون بعرب الشرق !

انني اطيل عليك الشرح يا ابنتى وقد يستولى عليك الملل . ولكنه شرح لا بد منه !

وعرب الهوارة محافظون على العادات والتقاليد التى ورثوها من الآباء والاجداد . والأخذ بالثأر عندهم من الفضائل والشيم الكريمة. فقد تأصلت هذه العادة فى نفوسهم ، ورسخت فى اذهانهم ، وامتزجت

بدمائهم ، وهم يتوارثونها في عشائرهم وافخاذهم وبطونهم . فالقاتل يقتل . ودم القتيل لا بد ان يثار له احد اقاربه ان عاجلا أو آجلا . وقد كان أجدادنا من قبل يتغنون بقول السموءل :

« .. ولا طل منا حيث كان قتيل ! »

فالابن يثار لابيه .. والاخ يثار لاخيه . ومن يجبن عن الاخذ بالثأر ، فهو في نظرنا خارج على التقاليد ؛ جدير باحتقار الناس أجمعين .

الا ترين يا هدى ، ان البعض من عرب الهوارة لايقيمون لقتيل منهم مأتما ، ولا يقبلون فيه عزاء ، ولا يضيئون منازلهم ، ولا يقيمون على قبر القتيل شاهدا ، ويضع بعض أفراد اسرته حول عمائمهم مناديل كالنساء ، الى ان يجيء اليوم الذى يثار فيه أحدهم للقتيل من القاتل ، فيغسل العار بالدم ، ويعيد الى الاسرة فرحها ، ويرفع عنها الذل والهوان ، فيقام المأتم ، ويقبل العزاء ، وتضاء المنازل ، ويوضع على القبر شاهد ، وتمزق المناديل عن العمائم ؟

انك تعلمين كل ذلك يا ابنتى . وان كنت تجهلين فقد علمت الآن ..

بقى على اذن ان اطلعك على السر الدفين في صدرى !

هدى .. منذ عشر سنوات مات ابوك قتيلا بيد مجرم اثيم . فان رجلا من العربان أحب أمك ورغب في اتخاذها زوجة له . ولكنه وجد في سبيله عثرة . وجد اباك فوازا الشاعر ، زوج امك في ذلك الوقت !

اراد العاشق ان يخلو له الجو ، فعمد الى الجريمة وقتل غريمه غدرا .. ثم تزوج امراة القتيل !

وهنا ، صاحت هدى :

ــ صالح !.. ماذا تقول يا صالح ؟. أبى مات مقتولا .. وقاتل ابى هو اليوم زوج امى ؟

فأجاب الشيخ :

ــ نعم يا هدى . ان قاتل ابيك هو رمضان عبد الكريم الذى رضيت به أمك زينب زوجا لها ، وهى تعلم علم اليقين انه خضب يده بدم زوجها الاول ، قبل أن يضع تلك اليد الاثيمة بيدها المرتجفة ويذهب بها الى المأذون لعقد الزواج !

ـ ما افظع هذا الذى تقصه على يا صالح !

ـ نعم يا ابنتى . هذا فظيع جدا ، ولكننى اقسمت ان اطلعك على الحقيقة التى لا يعرفها فى البلد غير اثنين : انا وامك زينب ! فقد مات عمك رضوان بعد مقتل ابيك بشهرين . دون أن يتمكن من القاتل ويثأر للقتيل . وقبل أن يسلم الروح ، قال لى وهو على فراش الموت: « صالح . لم يبق من اسرتنا للأخذ بثأر اخى غير ابنته الصغيرة هدى، وهى الآن فى الخامسة من العمر . فاحفظ سرنا دفينا فى اعماق صدرك لكى تفضى به الى هدى عندما تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، اى بعد عشر سنوات كاملة . واحتفظ ايضا بهذا الخنجر ، وهو الذى قتل به رمضان عبدالكريم اخى المسكين . فان المجرم الاثيم لم يلجأ الا الى هذا السلاح الذى هو فى نظرنا سلاح الجبان الرعديد . فبهذا الخنجر، الذى خضب بدم اخى . وعلاه الصدأ يجب أن يقتل القاتل عندما تأزف الساعة !

« هذا ما قاله لى عمك رضوان قبل أن يلفظ نفسه الاخير ياهدى. واليك الخنجر المخضب بدم ابيك ، والذى يعلوه الصدأ ، فقد اخذته من يد عمك ، واحتفظت به وديعة اعيدها اليك الآن ! »

مدت الفتاة يدها ، وتناولت من الشيخ الخنجر الذى افقدها اعز الناس لديها ، وضمت اناملها على قبضته ونظرت الى قبر فواز الشاعر ، وقالت :

ـ ابتاه !.. نم هادئا مطمئنا قرير العين ! فان ابنتك سوف تثبت للملأ انها من صلبك ، فتثأر لك من قاتلك ، وتعيد الى الاسرة عزها وشرفها !

***

جاء شهر ديسمبر عام ١٨٥٨ ..

الاعمال جارية على قدم وساق فى معبد الاقصر الاكبر ، حيث تعاد الاعمدة الضخمة والجدران المنقوشة ، والتماثيل المطمورة ، الى سابق عهدها وسالف مجدها ..

مئات من العمال والادلاء والصبيان يروحون ويجيئون ، ولهجات مختلفة ، تتصاعد من بين تلك الآثار .

ورمضان عبدالكريم يستعد للعودة الى بلدته وبيته ، بعد انقضاء مدة العقد الذى يربطه بالبعثة الغربية ..

كان يقيم فى خيمة كبيرة مع بعض الادلاء من العرب سكان المنطقة،

وكان على موعد معهم ، فى تلك الليلة ــ ١٨ من ديسمبر عام ١٨٥٨ ــ لقضاء السهرة فى فرح ومرح ورقص وغناء ..

أليست ليلة الوداع ، قبل أن يرحل رمضان عن الاقصر ، عائدا الى طهطا ؟

جلس رفاقه فى حلقة داخل الخيمة ؛ وجعلوا يتساءلون عن سبب تأخره ·

ومرت ساعة فساعتان فثلاث ...

ومر الليل بطوله ، ورمضان لم يعد الى الخيمة كعادته . ونام رفاقه ساخطين ناقمين !

واستيقظوا من نومهم ، عند الفجر ، على صوت الحارس يناديهم بأسمائهم ، الواحد بعد الآخر ·

ــ ماذا جرى ؟

ــ اتبعونى !.. تعالوا !.. اسرعوا !.

خرجوا جميعا من الخيمة ، وتبعوا الحارس بين انقاض الاعمدة واكوام التراب ..

ووقفوا مبهوتين ، مصعوقين ، أمام المنظر الذى بدا لهم عند قدمى تمثال رمسيس الثانى ، الصامت ، الجالس على قاعدته منذ آلاف السنين ..

ــ ماذا رأوا ؟.

رمضان عبدالكريم ، جاثما وسط بركة من الدم ، وقد مال برأسه على قاعدة التمثال !

وفى صدره ؛ ناحية اليسار ، خنجر أغمد نصله فى القلب !

من القاتل ؟

سؤال لم يستطع أحد من الادلاء والعمال ان يجيب عليه . فدفن رمضان عبد الكريم فى الاقصر ، بعد ان مشى رفاقه فى جنازته ، وعلى وجوههم امارات الحزن والدهشة ..

***

قالت هدى لأمها زينب :

ــ أماه . لقد طالت غيبتى عليك . ولكن لاتجزعى . فقد كان لى

الشيخ صالح ، جارنا وصديقنا ، خير مرشد ودليل وحارس فى رحلتى هذه . لقد زرنا الاقصر ، وطفنا فى انحاء الخرائب التى يؤكد الناس ان تاريخ بنائها يعود الى آلاف السنين .

ولكننا نحمل اليك خبرا محزنا .

ـ باسم الله الرحمن الرحيم !

ـ أماه .. نعم .. اقرئى الفاتحة فقد مات زوجك !

صرخت زينب صرخة هائلة ، ولطمت خديها، ولكن الفتاة امسكت بيدى أمها وقالت لها بهدوء ممزوج بالحنان :

ـ لا ترفعى الصوت بالبكاء والعويل ! فالقدر كان يا أمى ! اما مات زوجك الاول ؟ وأية غرابة فى ان يلحق به الثانى . راح الاول قتيلا . وراح الثانى قتيلا مثله . فليرحمهما الله ! ألا تعلمين ان الاخذ بالثأر عند عرب الهوارة فضيلة وواجب ؟ وما ادراك انه لا يوجد فى هذه البلاد الواسعة من يمت الى فواز الشاعر بنسب .. وان ذلك الشخص المجهول قد انتقم للقتيل .. من القاتل !

قالت الفتاة هذا وحدقت البصر فى امها ..

فسكتت زينب ، وادركت ان ابنتها تعلم كل شىء ، وان للشيخ صالح ، صديق زوجها الاول ، يدا فى ذلك كله !

فاستسلمت لحكم القدر ..

وفى صباح اليوم التالى خرجت هدى ، الفتاة العربية المصرية المنتقمة ، ومعها أمها زينب الى جبانة طهطا ، حيث كان الشيخ صالح فى انتظارهما ..

وذبحت ذبيحة وزعت لحومها على الفقراء ...

وخضبت هدى يديها بدم تلك الذبيحة ولوثت بذلك الدم الشاهد الذى يعلو قبر ابيها ، قبر فواز الشاعر الهوارى ...

والتفتت الى أمها وقالت :

ـ أماه . ما أصدق ما قاله لى الشيخ صالح مرة ، نقلا عن شاعر عربى لم اعد اذكر اسمه : « ولا طل منا حيث كان قتيل ! »

الأســد الســودانى

تضــاربت الروايات حــول الزعيم الســودانى «عثمان دقنه» والمرجح ان هذه الرواية أقرب من غيرها الى الحقيقة الواقعة !

جلس الصديقان الشابان في حوش المدرسة الحربية بالقاهرة ، وجعلا يتجاذبان اطراف الحديث ، فأفضى كل منهما الى صاحبه بما يجيش في صدره من آمال واسعة ، ومطامع بعيدة .

اسم احدهما أحمد عرابى ، واسم الثانى عثمان الصغير !

تحدثا طويلا عن مصر والسودان ، عن الحاضر والمستقبل ، عن الشرق والغرب ، عن الحروب السابقة والمقبلة ، عن كل ما يثير اهتمام شابين تجرى في عروقهما دماء حارة ، وتختلج في صدريهما روح وثابة ، ويدفعهما الاقدام الى السعى وراء المغامرات ، وركوب متن الاخطار ، طلبا للمجد أو رغبة في الشهرة ...

جاء عثمان الصغير الى المدرسة الحربية ، وكان قليل الكلام يميل الى العزلة ، فلم يصادق من بين رفاقه غير أحمد عرابى . وتوثقت بين الشابين عرى أخوة متينة ، وروابط محبة خالصة .

وكان عثمان في ذلك اليوم قد عول على ترك المدرسة والرحيل عن مصر . فكان لقاؤهما في الحوش جلسة الوداع وكان حديثهما خاتمة الاحاديث ...

وقد فرقت الأقدار بينهما فراقا دائما . وسعى كل منهما لتحقيق اهدافه وامانيه بالوسائل التى توافرت له .

قاد أحمد عرابى ثورة الجيش المصرى في سنة ١٨٨٢ . وكان عثمان الصغير في الوقت ذاته يجمع جموعه في السودان الشرقى ويخوض غمار الحرب ضد المصريين والانجليز ...

***

ما أسرع الارض في دورانها ، وما أسرع الايام والاعوام في تتابعها !

في سنة ١٩٠٠ دارت الدائرة على الدراويش بعد حرب دموية طاحنة وطورد عثمان من مكان الى مكان ، وخر في النهاية على الارض منهوك القوى ، ووقع في الاسر فأرسل الى السجن في الخرطوم .

افل نجمه فاستسلم لحكم القدر . وجلس بين جدران سجنه ، واخذ لحيته الكثيفة بين أصابعه ، وراح يعبث بشعورها الفضية ...

وشردت أفكاره الى المـــاضى القريب والبعيد . فتذكر شبابه . وتذكر الاسكندرية ، وتذكر صديقه أحمد عرابى ، الذى وقع فى الأسر مثله ، وارسل الى السجن مثله ...

وتذكر صباه ، هناك ، فى بلاد نسى لغتها ، ونسى اهلها وهى لغته، وهم اهله :

ما اقسى القدر وما أغرب الحياة !

تجلت للأسير صفحات حياته ، فجعل يقلبها واحدة واحدة ، ويقرأ فيها مادونه باعماله من سطور ...

عادت به الذكرى الى تلك المدينة الفرنسية التى راى فيها النور ، والتى كان يجرى فى طرقاتها وازقتها مع الصبيان .

اسمها «روان»

واسم والده «نيسبت»

واسمه هو «جورج»

أما الآن ، فهو عثمان دقنه السودانى !

ياللغرابة !

***

هاجر « نيسبت » الأب من وطنه سكوتلاندا الى فرنسا مع زوجته الشابة ، واستقر به المقام فى مدينة «روان» حيث فتح حانوتا لبيـع المأكـولات والمشروبات ، وكثر اقبـال العمال والفـلاحين عليه فراجت تجارته ، وأحبه الناس لما اتصف به من خلق كريم ، وحـديث فكه ، وحب للخير .

ورزق «نيسبت» فى روان ، سنة ١٨٣٦ ، مولودا أسماه «جورج» .

لكن الرجل لم يطق الاقامة طـويلا فى فرنسا ، فحمله ميـله الى المغامرات والاسفار ، على بيع حانوته ، والرحيل الى الاسـكندرية مع عائلته الصغيرة .

وهناك عرف رجلا من الاناضول يدعى «عثمان خير الدين » يمارس تجارة الرقيق بين الاستانة والاقطار الافريقية ، ويعد من كبار النخاسين فى ذلك العهد .

كان عثمان النخاس فى حاجة الى رجل من الغرب يحسن اللغات الاجنبيـة ، فاسـتخدم نيسبت الذى اخلص له الخـدمة وعاونه فى اعماله الواسعة ، واصبح فى مدة قصيرة حائزا على ثقته ومحبته .

لـكن مرضا مفاجئا أودى بحيـاة المسـكين فى سنة ١٨٤٨ ، فبقيت زوجته وحيدة مع ابنها جورج ، وكان قد بلغ الثـانية عشرة من عمره ...

غير أن عثمان خير الدين كان وفيا لصديقه بعد موته . فقد ظل ينفق على المراة وابنها ، وطلب الى الزوجة الحزينة الا تمد يدها الى ما ادخرته من مال ، وأن تحفظه لجورج كاملا كما تركه ابوه .

وجاءته المراة ذات يوم حزينة كئيبة ، وقالت :

ــ لقد غمرتنا بعطفك • ولكننا لانريد ان نبقى هنا عبئا عليك • فهل لك أن تسـاعدنا على العـودة الى فرنسـا حيث لنـا اصـدقاء ومحبون ؟

فاجابها عثمان :

ــ ان النخاس شرس الطبـاع غليظ الكبد يا سيدتى • ولكنه يحفظ الجميل ولا يتخلى عن صديق . لقد مات زوجك . فهل تقبلين ان احل محله ؟

ــ اتريد منى .. ؟

ــ ان تصبحى زوجتى ، نعم ، وان يصبح ولدك ولدى .

ــ ودينى ؟

ــ لا اجد فى دينك عقبة تحول دون تحقيق هذه الرغبة ستظلين على دينك اذا شئت . او تعتنقين الاسلام اذا اردت ...

ــ وجورج ؟

ــ ان مستقبله بين يديك • فعليك وحدك ان تختارى له السبيل الذى تريدين ان يسير عليه .

فكرت المراة قليلا . ثم رفعت راسها وقالت :

ــ قبلت . ساصبح زوجتك .. ولكن على شرط ...

ــ وما هو الشرط ؟

ــ اريد ان اكون زوجتك الوحيدة ، لا تشاركنى فى حياتى الزوجية امراة اخرى ...

ـ سيكون لك ما تريدين !

ـ سأدين بدينك مع ولدى . فكن له منذ الآن الأب الحنون الذى ينسيه فقدان أبيه .

ـ ساكونه . وليس ما اعرضه عليك الآن غير بعض الوفاء نحو من كان لى امينا وفيا .

تزوج عثمان خير الدين ، النخاس التركى ، زوجة صديقه نيسبت السكتلاندى ، وتبنى ابنه جورج الفرنسى ، واطلق عليه اسم « عثمان الصغير » .

وماتت الزوجة فى السنة ذاتها ، ولحق بها زوجها الثانى بعد سنتين ، بدون ان ينجب ابناء ، فورث عنه « عثمان الصغير » ابن نيسبت ثروة طائلة !

وعندما اشتد ساعد الشاب ، فكر فى ممارسة الجندية ودخل المدرسة الحربية بالقاهرة ، ولكنه لم يقم فيها طويلا ورأى أن السير على منهج الرجل الذى تبناه واورثه ماله خير له من البحث عن مهنة أخرى. فقرر مزاولة تجارة الرقيق ، وراح يطوف بالبلدان شرقا وغربا وجنوبا، ويعرض على الناس بضائعه وسلعه الحية من عبيد وجوار . وانتهى الامر بأن اتخذ ساحل السودان الشرقى مقرا له ، ومركزا لتجارته الرابحة ، لان مصر كانت قد الغت تجارة الرقيق فى أرضها ، وسدت امام النخاسين أبواب الرزق .

واطلق عثمان لحيته فسماه السودانيون « عثمان دقنة » .

***

بينما كانت الحوادث تتتابع فى مصر ، والحالة تسوء يوما عن يوم ، منذرة بقرب انفجار لم يكن أحد يستطيع التكهن بزمانه وشكله وعواقبه ، كان السودان ، من ناحيته ، مسرحا للاضطراب والقلق والهياج ...

وقع فيه الانفجار قبل أن يقع فى مصر !

فى سنة ١٨٨٠ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٩٧ هجرية ، أعلن محمد احمد المهدى الثورة ونادى بقيام دولة سودانية ، وبدأ يهاجم الحاميات المصرية فى طول البلاد وعرضها ...

واحرز المهديون سلسلة من الانتصارات ، وتزايد عدد المقاتلين تحت امرة محمد احمد يوما عن يوم ...

وانضم عثمان دقنه الى الثائرين ، وكان قد بلغ العقد الخامس من العمر ، وجمع ثروة كبيرة زاد بها الثروة التى ورثها عن مربيه وزوج امه . وعهد اليه المهدى بقيادة الحرب فى الجبهة الشرقية من السودان ، والحيلولة دون وصول النجدات والمؤن والذخائر بطريق البحر ، الى الجيش المصرى ، الذى انضمت اليه فيما بعد قوات انجليزية ، ارسلت من مصر بعد أن كان الانجليز قد اعتدوا عليها واحتلوها فى سنة ١٨٨٢ ، اى بعد نشوب الثورة المهدية بالسودان بنحو عامين .

نجح عثمان دقنه فى اداء المهمة التى اسندها اليه زعيم الثورة . وقوى مركزه تجاه « الدراويش » وهو الاسم الذى عرف به المقاتلون بقيادة المهدى ، وتجلت شجاعة قائد الجبهة الشرقية فى جميع المعارك التى خاض غمارها فصارت تضرب بها الامثال !

سجل عثمان دقنه انتصارات باهرة ، فى سنتى ١٨٨٣ و ١٨٨٤ على الخصوص ، وكانت الاعمال الحربية التى قام بها على ساحل السودان وفى الطريق بين سواكن والخرطوم ، من العوامل الرئيسية التى مكنت المهدى من الاحداق بالعاصمة ، ومهاجمتها ، والاستيلاء عليها .

والى عثمان دقنه وحده يعود الفضل فى سيطرة الدراويش على شرقى السودان كله .

***

سقطت الخرطوم فى ٢٦ من يناير عام ١٨٨٥ .

ومات محمد احمد المهدى فى شهر يونيو من السنة ذاتها وخلفه عبد الله التعايشى . وظل عثمان دقنه مسيطرا على البقاع الشرقية والساحل . وعادت تجارة الرقيق الى الازدهار .

لكن المصريين والانجليز لم يضيعوا الوقت ...

فقد اعدوا عدتهم لاسترجاع السودان ، وزحفت جيوشهم من جديد فى سنة ١٨٨٨ ، وكان مقدرا لهذه الحرب ان تستمر عشرة اعوام ...

عشرة اعوام تقاتل فيها الأشقاء ، وحارب فيها السودانيون اخوانهم المصريين ، ولم يدرك هؤلاء واولئك ان الانجليز ، وقد وضعوا اصابعهم فى هذا الصراع العائلى الأثيم ، سيفوزون من الغنائم بحصة الأسد ، بل سيكونون هم وحدهم الغانمين الرابحين !

زحفت الجيوش المتحالفة اذن على السودان ، ونشب فيه القتال

مرة أخرى ، ومرة أخرى عاد عثمان دقنــه الى تسيير دفــة المعــارك فى الاقاليم الشرقيـة !

شعر الرجل فى هذه المرة بأن الخطر جسـيم ، وبأن القتال سيكون مريرا ، فقذف فى الميدان بجميع ما استطاع حشده من قوات واسلحة، ولكن الحظ فى هذه المرحلة من الحرب كان يضحك له يوما ، ويعبس فى وجهه أياما !

توالت عليه الهزائم وخانه النصر . ولكنه لم يترك لليأس منفذا الى قلبه .

ظل يقاتل ، وظل ينهض بعد كل كبوة ، ويعود الى الميــدان بعد كل هزيمة ، وكان خبر موته ينتشر مرة كل اسبوع ، ولكنه يكذب الخبر فى الاسبوع التالى !

واخيرا تعب عثمان دقنه من القتال او تعب القتال منه ، فهام على وجهه فى البرارى والجبال والادغال ، وكانت مطاردة أشبه بالاساطير !

ووقع الاسد الهارب أسيرا ، وسيق الى السجن مكبلا بالحديد !

***

تلك هى الذكريات التى تلاطمت فى صدر الرجل ، ومرت فى خاطره، وهو جالس بين الجدران الاربعة ، يعبث بشعور لحيته ، وينظر من خلال النافذة الضيقة الى السماء الزرقاء ، والى الفلوات التى صــال فيهــا من قبل وجال وطارد فيها وطورد ، وانتصر فيها وانهزم !

لقد ضاع كل شيء : الثروة ، التجارة ، الشباب ، الحرية !

مرت فى ذهنه أسماء الاشخاص الذين عرفهم فى حياته اصــدقاء او اعداء : اسماء ابيه نيسبت ، وامه ، ومربيه وزوج امه ، عثمان خير الدين ، واحمد عرابى الذى لم يكن اوفر منــه حظــا ، والجنرال باكر ، وهكس باشــا ، ورءوف باشــا ، ويوســف باشا ، وغــوردون باشا ، وجرانفــل ، وغــيرهم من القــواد الذين هــزمهم أو هزموه ، ونازلهم ونازلوه . والنجاشى يوحنا الذى حاول ان يطعنه من الخلف ، فى حين انه كان مشتبكا فى معركة مع الانجليز . والجنرال ونجت ، الذى قتــل عبد الله التعايشى ، وأسر عثمان دقنه ـ فى ١٨ من يناير سنة ١٩٠٠. واخيرا كتشنر ، الذى تم اخضاع السودان على يده !

لقد انتهى كل شيء ، وضاع كل شيء !

والشيخوخة تحط بأثقالها على منكبيه ، والاسر يزيده عذابا على عذاب ...

انه يشعر بأن الوهن يتطرق الى جسمه ، والى عقله أيضا ..

انه يبذل جهدا عظيما لكى يتذكر !

***

انه لا يتذكر ، مهما بذل فى هذا السبيل من جهد !

الظلمـــات تكتنفه ، وركبتاه تضطربان ، ويداه ترتجفان ونظره لا يميز الاشياء ...

فتح باب السجن مرة ، ودخل عليه رجل طويل القامة وحياه بالعربية ، فرفع اليه عثمان عينيه المنطفئتين ...

وقال الرجل :

ـ كيف حالك يا عثمان ؟

ـ أحمد الله أولا وآخرا .

ـ أما عرفتنى ؟

ـ لا ..!

ـ كتشنر !

ـ من ؟

ـ انا اللورد كتشنر !

ـ اللورد ؟ ..

ـ الا تذكر هذا الاسم ؟..

ـ لا ..!

ـ الم تسمع به ؟

ـ لا ..!

***

فى شهر ديسمبر عام ١٩٢٦ ، مات عثمان دقنه ، أو جورج نيسبت ، أو عثمان الصغير ، الزعيم السودانى . وقد فقد الذاكرة ، بعد أن فقد كل شيء ، وكان فى التسعين من العمر !

وكان صديقه وزميله السابق بالمدرسة الحربية . أحمد عرابى ، قد سبقه الى العالم الآخر فى سنة ١٩١١ .

وسواء اكان عثمان دقنه سودانيا أصيلا ، ام صح نسبه السكتلاندى الفرنسى ، فانه قد ترك فى الأذهان ذكرى مشرقة ، ودون فى سجل التاريخ صفحة رائعة ، فكان بطلا شجاعا ، وقائدا محنكا ، بقدر ما كان تاجرا بارعا ومغامرا لا يهاب المخاطر !

علـم ... وقلعـة

فى التاسع من شهر اغسطس عام ١٩٤٦ رفع على قلعة القاهرة علم مصرى صنع لهذا الغرض، فحل محل العلم البريطانى الذى ظل مرفوعا على هذه القلعة منذ ان دخلها الانجليز فى الخامس عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٨٢ .

فى السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٢ ، وثب الجيش المصرى على أسوار عكاء فاقتحمها بعد صراع عنيف ، ودخل المدينة من الثغرات التى احدثتها قنابل مدافعه وكان رابع الداخلين اليها الجندى « طه الكفراوى » حامل العلم ، فتناوله من يده قائد المدفعية « سليم بك » وركزه فى أعلى البرج المشرف على الباب الشرقى .

وفى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر من السنة ذاتها فى معركة قونية ، كان طه الكفراوى يحمل أيضا علما من الاعلام المطرزة المزركشة وقد عهد اليه فى استنهاض همة الفرسان من رجال البادية واستنفارهم ، فأصيب بخمسة جراح فى حومة القتال . ولكنه ظل محافظا على علمه وتمكن من الافلات من الأسر ، بمعونة شيخ بدوى زوجه ابنته فيما بعد . غير أن الجراح سببت له عاهة دائمة . فأرسل الى مصر حيث ألحق بالحامية فى قلعة القاهرة ، وهكذا ظل الجندى الاعرج الشجاع يتولى العناية بالعلم المرفوع على ساريتها .

أما العلمان : علم عكاء وعلم قونية . فقد ضما الى اعلام المعارك المحفوظة فى قاعة السلاح بالقلعة .

وراودت طه الكفراوى أمنية سعى الى تحقيقها حتى أجابه رؤساؤه الى طلبه ، وهو أن يكون ابنه الوحيد جنديا فى الجيش ، وأن يحمل العلم فى طليعة الصفوف كما فعل أبوه من قبله .

***

أرسل السلطان العثمانى عبد المجيد يستنجد بمصر لما زحفت جيوش القيصر الروسى على الاستانة . فأنجدته مصر بحملة برية قوامها خمسة عشر ألف مقاتل ، حملتها عمارة بحرية الى ضفاف البوسفور ، ثم الى ميادين القتال فى البلقان والقرم . وانحازت بريطانيا العظمى وفرنسا فى ذلك الصدام الى الدولة العثمانية . خوفا من أن تسبقهما روسيا القيصرية الى التسلط على المضايق . وقد اشتركت الحملة المصرية فى جميع المعارك التى دارت رحاها فى تلك البقعة من الارض واستبسل رجالها فى القتال . وكللت بسالتهم بالفار ، فكان النصر فى

تلك الحرب حليف الجيوش العثمانية وحلفائها ، وابتعد الخطر عن الاستانة الى حين !

وفى شهر مارس سنة ١٨٥٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٧٢ للهجرة، أبحر الجنود المصريون عائدين الى وطنهم ، كان بينهم أحد حملة الاعلام فى الميادين « سيد الكفراوى » ابن طه الكفراوى ، حامل العلم فى حروب الشام ، وقد جرح فى حومة القتال مثل ابيه !

فقد سيد الكفراوى ذراعه اليمنى وعاد الى أمه البدوية المتحضرة، بذراع واحدة ، فاستقبلته ابنة الشيخ الذى انقذ اباه فى معركة قونية، باطلاق الزغاريد وانشاد الأهازيج الحماسية ، كما كانت تفعل فى صباها وهى تجتاز الصحارى والقفار مع فرسان القبيلة ، طلبا لغزو أو سعيا وراء ثأر !

وضمت أعلام البلقان والقرم الى أعلام الشام والاناضول فى قاعة السلاح بقلعة القاهرة ...

وختمت حياة سيد الكفراوى كجندى ، ولكنه لحق بالخدمة فى ثكنات القلعة ، فحل محل أبيه ، على أن يظل محتفظا بثوبه العسكرى مثله ، ويموت حيث مات ...

وكما وعد طه الكفراوى بأن يصبح ابنه جنديا ومن حملة الاعلام وبر بوعده ، استجيبت أيضا أمنية سيد الكفراوى بأن يصبح ابنه جنديا مثل ابيه وجده ، وحاملا للعلم مثلهما ولكن « حسن الكفراوى » ابن سيد الكفراوى ، كان فى ذلك الوقت طفلا فى الخامسة من العمر ، ماتت أمه وهو فى المهد وتولت جدته تربيته ، ولم يتخذ أبوه زوجة اخرى .

***

مرت ست وعشرون سنة ، كانت السنوات الاخيرة منهسا مفعمة بالمكائد الاوروبية المنصوبة لمصر ، وبالمطامع الاستعمارية الحائمة حولها. وفى سنة ١٨٨٢ ، غلت المراجل ، ثم انفجرت فجأة على أثر حادث تافه وقع فى الاسكندرية بين رجل مصرى يملك حمارا ورجل مالطى فى الحادى عشر من شهر يونيو ، فعمت القلاقل والاضطرابات . وأسرع الاسطول البريطانى الى الثغر فضرب قلاعه وتحصيناته بالمدافع ونزل الى البر جيش أعدته بريطانيا من قبل لغزو مصر !

واندفع الجيش المصرى بقيادة احمد عرابى وصحبه الى منطقة قناة السويس ، لصد الغزاة ومنعهم من الوصول الى القاهرة ، وكان

الجندى حسن الكفراوى – احد حملة الاعلام فى الجيش – يقضى اجازة مرضية قصيرة فى كفر الدوار مسقط راسه ، حيث تقيم زوجته واطفالها . وسمع صوت الضمير يهيب به أن قم فواجبك العسكرى فى غير هذا المكان ، فقام بالرغم من مرضه الذى كان يقعده عن خوض غمار القتال . ولم يكن فى استطاعته ان يصل الى قلعة القاهرة حيث مقر فصيلته . وكان كثيرون من سكان المدن ومزارعى الارياف ، يهرعون الى مراكز الحاميات المصرية ومعسكراتها ، عارضين انفسهم للتطوع ، طالبين سلاحا للدفاع ، ففار فائر الحماسة فى صدر حسن الكفراوى، فطلب من زوجته وجاراتها أن يصنعن له علما مصريا ، جعل يطوف به فى العزب والمزارع ، فجمع حوله طائفة من الشبان سار بهم جريا على الاقدام الى التل الكبير ، فبلغوها فى الحادى عشر من سبتمبر والمعركة تشرف على النهاية . وقد تضعضع الجيش المصرى بفعل الخيانة والغدر، وبالرغم من استبسال الجنود فى القتال ، وما بذله عرابى ورفاقه من جهد لمنع الكارثة !

تفرق الشبان رفاق حسن الكفراوى . ولكن الرجل ابى أن يمزق العلم او يلقيه من يده ، وقيضت له المصادفة جوادا هائما بين الرمال وقد سقط فارسه صريعا ، فامتطى حامل العلم صهوته ، وانطلق ينهب الارض نهبا فى طريقه الى القاهرة ، فبلغ القلعة فى اليوم التالى ، وقد التهب راسه بالحمى وخارت قواه ، ولكنه تجلد حتى تمكن من الوصول الى قائده ورئيسه « الماظ رفعت » فى مقره داخل القلعة ، فألقى بالعلم بين يديه ، وقص عليه ماحدث له ولرفاقه . ثم انتابته رعشة سقط معها على الارض فاقدا الحياة !

فى الخامس عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٨٢ ، دخل الجنود البريطانيون قلعة القاهرة ، وخرجت منها حاميتها المصرية المؤلفة من اربعة آلاف رجل ، ورفع على ساريتها العلم البريطانى ... حتى انزل عنها فى شهر يوليو ١٩٤٦ ليعود العلم المصرى الى مكانه !

ففى يوم الجمعة التاسع من شهر اغسطس عام ١٩٤٦ – الثانى عشر من شهر رمضان عام ١٣٦٥ – رفع علم صنع خصيصا لذلك اليوم المشهود ، على سارية تناطح الفضاء نصبت على قاعدة تذكارية ، وضع تصميمها المهندس « سحاب الماظ » حفيد الضابط الماظ رفعت ، الذى كان آخر من غادر القلعة من الضباط العظام ، فى يوم احتلالها المشئوم سنة ١٨٨٢ !

***

وتتابعت الايام ، وانحسر الاحتلال الاجنبى فى جزر مستمر ، بعد أن ظل عشرات الاعوام يتسع فى مد مستمر !

وفى سنة ١٩٥٦ ، رحل آخر جندى من جنود الاحتلال عن قاعدة قناة السويس ، وخفقت عليها الأعلام المصرية ، بعد أن طويت الأعلام البريطانية !

ولكن الذين رحلوا مرغمين ، عن ارض كانوا قد احتلوها مغتصبين، عادوا فندموا على رحيلهم ، وعاودوا الكرة فى محاولة احتلال جديدة ، ومعهم حلفاء وشركاء فى شتاء تلك السنة !

وفتك الشعب المصرى بالمعتدين فتكا ذريعا ، ومزق أعلامهم شر ممزق ، فطووها ورجعوا من حيث أتوا ، يجرون أذيال الخيبة والذل والانكسار !

وصفقت فى أجواء ارض النيل ، اعلام مصر بنت النيل ، ولم يبق لغيرها من الأعلام ظل فى وادى النيل ! !

فهرس